مكتبة نوميديا

رواية

1/2 مسافة

محمد صالح البحر

الدار المصرية اللبنانية

½ مسافة

رواية

البحر، محمد صالح.

2/1 مسافة: رواية / محمد صالح البحر .- ط1.-

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.

168 ص؛ 20 سم.

تدمك: 3 - 801 - 427 - 977 - 978

1- القصص العربية

أ - العنوان 813

رقم الإيداع: 11107 /2014

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

الطبعة الأولى: أغسطس 2014م

1/2 مسافة

رواية

العابرون قد يتركون آثارهم،

وأرواحهم أيضًا

لكن المنازل تصطفي عاشقيها

1

نحـن في فبرايـر، ومن المفترض أن فصل الشـتاء لم يـزل قائمًا بجبروته، وسـطوته، وقسـوة برودتـه التي طالما أدخلـتْ في أبداننا قشـعريرة رجَّتها، وفي نفوسـنا ضيقًا احتملناه لعقود طويلة، لم تزل تُلقي بظلالها الثقيلة، وجبروتها الجاسـم من حولنا، غير أن شـيئًا ما قـد حدث فاختلتْ المنظومة الطقسـية بكاملها، وبدا جليًّا أن هوجة مـن الحر الشـديد بدأت في الزحف نحونا، وأنهـا تحمل في طياتها رغبـة قوية فـي إذابة جبـل الثلج التليـد المنتصب فـوق رءوس كل الأشـياء، أرجـع بعضنا ماهية هذا الشـيء إلى الأسـطورة، وقدرتها علـى التحقـق في كل زمان ومكان، لكن بعضنـا الآخر أنكر وجوده تمامًا، ولـم يلتفت أي منا إلى ذاته، أو أنه مشـارك بشـكل ما في هذا الحـدث، وكمـا اختلفنا في ماهيـة الوجود وأسـبابه، اختلفنـا أيضًا فـي الإحسـاس به، وبعلاماته التي تتجسـد فـي الواقع أمـام عيوننا، بعضنـا ممن كانـوا ينعمون بـدفء ملابسـهم الثقيلة في ظـل البرد، ولم تتحسـس جلودهم طريقها إلى الأسـطورة بعد، ظل متكومًا في برودته الأبدية، لكن بعضنا الآخر استشعرتْ قرون حاسته السادسة فحيح لهيبها القادم من بعيد، فدخلت حواسه فيما يُشبه الربيع الذي

يقف على أعتاب صيف لا قِبَل لبرد الشتاء بشمسه الحارقة، فأصابه الحر، وراح العرق يتكوم فوق جبينه مع كل شعاع للشمس الطيبة يحاول أن يُلقي بنوره إلى الأرض من حولنا.

في هذه اللحظة، وتحت ظلال هذه الأسطورة التي نختلف بشأنها، والتي أشعر أنها تتسلل إليَّ في خفاء الحرباء، بدتْ عقارب الساعة سريعة رغم أنني أريدها أن تُبطئ، كنت داخل السيارة «البيجو» وهي تعبر نقطة مرور «الفتح» متجهة صوب كوبري الجامعة، هي الآن تطأ بدايته في بطء وثقل، لكنني لا أستطيع أن أطلب من السائق زيادة السرعة، فالكوبري ضيق ومعبأ عن آخره بالسيارات التي راحت تزاحم بعضها في العبور في تحدٍّ واضح.

كتمت غيظي وسكتُّ، ورحت أنظر إلى عقارب ساعتي وهي تزحف سريعة باتجاه الثالثة والربع عصرًا، فهل سأستطيع اللحاق بأتوبيس الساعة الثالثة المتجه إلى مدينة «الخارجة»؟ إذا فاتني سأقع في حيرة كبيرة، صحيح أن موعد قيامه قد فات بالفعل، لكن منذ متى تحدث الأشياء في وقتها هنا؟! وماذا كان عليَّ أن أفعل أكثر من ذلك؟ لقد ألححت كثيرًا على السائق لزيادة السرعة، وللحق كان يستجيب، خصوصًا بعدما اختفت نقاط التفتيش المرورية منذ انفجار الثورة قبل ثمانية عشر يومًا، غير أن بقية الركاب الستة الذين يجاورونني في السيارة «البيجو» راحوا يهمهمون ويضجرون، وحين أحسوا أن حياتهم قد تتعرض للخطر من جراء ذلك، راحوا في حزم

يطالبون السائق بالإبطاء من سرعة السيارة، أخبرتهم أنني جندي عائد من إجازتي، وأن الأتوبيس أوشك أن يفوتني، لكنهم نظروا إليّ في قرف شديد، وسكتوا كأنهم يقولون «ولــو.. حياتنــا أهــم»، ولما كان السائق ديمقراطيًا جدًّا فقد استكان لرأيهم وأهملني، وراح ينظر للطريق أمامه في حرص، محاولًا الحفاظ على وضع سيارته وهي تزحف في بطء فوق كوبري قديم وضيق، ووسط زحام شديد وقابض، وأسفل شمس خالصة، لم تعبأ ببقاء فبراير، وأصرتْ على أن تمد حبائل دفئها في نفوس الناس وأرواحهم، فجعلتها تواقة للتحرر والانطلاق بعيدًا عن قوقعاتهم المعتادة لبياتهم الشتوي.

الآن أيقنت أنه لا جدال يُجدي مع ستة نفر معممين يزدرونني ويخافون على حياتهم فأهملتهم جميعًا (الستة المعممون، والسائق بسيارته السلحفاة، والحر الذي ألهب وجهي الأسمر فجعله في مرآة السائق الأمامية أحمر قانيًا) واتجهت ببصري صوب النيل، حيث كان الماء عبر نافذة السيارة يجري مندفعًا من أسفل الكوبري جهة الشمال بسرعة جنونية، كأنما يهرب من جحيم واقع، مُحقق.

أيها النيل العظيم، لماذا تفر صوب الشمال وحدك؟! وتتركني مغروسًا على أم رأسي في جنوب لفظني ولا أحبه، ومدفونًا في رمال الواحات الغربية، ومنفطرًا قلبي من اليأس، ألأني أخشى ماءك وأخاف العوم فيك؟!

أصابني غضب شفيف، فاتكأتُ بظهري للوراء وأسلمت نفسي للمقعد، فكان مثل المقعد الخلفي للسيارة «الرمسيس» التي تُقلنا من قلب مدينة «قنا» لتقذفنا بعد عشر دقائق فقط في قلب حي «المعنَّى» حيث نسكن، وكانت سعاد تجلس إلى جواري صامتة وغاضبة وقد ألهبت كلماتي خديها الأبيضين، فكستهما بلون وردي فاتح انطبع على بياض وجهها ليزيد من جماله ورونقه، وراحت سخونة الغضب تترك على جسدها عرقًا غزيرًا، ألصق جلدها الشارب من حُمرة الحر ببلوزتها البيضاء القطنية، فتحددت معالم السوتيان ظاهرة في عينيَّ، وفي قلبي، وفي أماكن أخرى أوجعتني كثيرًا مثلما أوجعني غضبها خلال المشادة الكلامية التي جرت بيننا في الكافتيريا وغيَّرت ملامح وجهها تمامًا، وحين جحظت عيناها، وارتفع رأسها محددًا معالم الذقن والأنف، صغيرين وحادين أسفل حاجبيها اللذين تقاربا حتى حد الملامسة، لتتكسر جبهتها تمامًا من فوقهما في تعرجات أفقية على الجانبين ورأسية في المنتصف، هذا الوجه الغاضب هو نفسه الوجه الجميل الفَرِح، الذي اعتلته ابتسامة واسعة لما رآني عائدًا من الجيش عصر أمس، فرحة العودة أصابتها باضطراب وحيرة، هل تجري عليَّ؟! أم تظل على عتبة باب بيتهم حتى لحظة مروري من أمامها؟

في شارعنا الترابي، الفسيح، راح الصبية تحت أشعة الشمس الحمراء، المخنوقة مع اقتراب الغروب، ينقسمون إلى فريقين

يجـرون خلـف بعضهم، مُطـارِد ومُطـارَد، مَنْ يمسـكونه يتشـبثون بملابسه جيدًا لتفشـل كل محاولاته في التملص، حينها يمد إحدى يديه ليلمس زميلًا له في فريقه لم يتم الإمسـاك به بعد، فتكون لمسة خلاصـه، حتى إذا تم الإمسـاك بالمطارَدين كلهـم يتوقف الجميع، ويبدلـون أماكنهـم حيـث يتخـذ المطـارَدون الجُدد إحـدى جهتي الشـارع ويبدأ أحدهـم في الزعيـق: «لِبْسُ الحمام طايـر»، فيجرون خلف بعضهم في لعبة لا تكاد تنتهي.

حيـن أصبحت علـى مقربـة منهم رأتنـي عيون إخوتـي الصغار وتهللت وجوههم بالفرحة وهـم يزعقون عليّ في نداءات متداخلة ويتكالبـون من حولـي، زفّوني إلى عتبة باب بيتنا البراني وسـبقوني يبشـرون أمي، فأصبحت إلى جوار سعاد وهي تقف على عتبة بيتهم المجـاورة لعتبـة بيتنـا تمامًا، الأيام السـتون التي مـرت قبل مجيئي ذابت الآن تمامًا في المسافة التي تفصل بين عيوننا، فلم تنطق سوى بـ «حمد الله على السلامة»، ولـم أرد بأكثر من «الله يسلمك» .

بالليـل كان لقاؤنـا مجرد الانتظار حتـى تخف وطأة الأقدام في الشـارع، لنقف قليلًا في ركن من أركانه المظلمة إلى جوار الحديقة المهجـورة منذ زمن المـزارع التي كانت تغطي «المعنى» وتُكسـبها صفة القرية، مسـافة الخطوتين التي كانت تفصلنا عند انتهاء سـيري الحذر من خلفها ذابت تمامًا حينما ألقت بجسدها في صدري، وبين

التصاق جسدينا المتحرك في عراكه المحموم تكسرت عذابات شديدة وقاسية من البُعد والشوق والحنين المكبوت، بدوت سعيدًا جدًّا بإحساسي بنعومة خدها المُشع في العتمة في ملامسته المجنونة لخدي، وتشجيعه المستمر ليديّ اللتين اخشوشنتا من كثرة التدريبات الأرضية وحمل الطوب الأسمنتي لمسافات بعيدة ومتعمدة؛ كي تضغطان ظهرها نحوي، تسحبانه من كل جانب حتى يتشوك الجسد الطري ويقشعر داخلي، الآن تتذبذب حركته في جسدي بحيث أشعر بتضاريس جغرافيته كاملة وطرية وناعمة، وبحيث يصحو مارد الرغبة بشكل كامل وغبي إلى حد التهور، إلى حد شعورها الكامل به، ووقوفها الواقعي على حافة تمرده الثوري، فأرى روحها وهي تتمزق بين الرغبة في اللحظة الفرحانة، والهروب من أجل تخفيف عمقها، وحِدَّتها، لكن الشوق الذي تملَّكها تمامًا من طول الانتظار هو نفسه الذي راح ينتصر لهروبها ويُبعدها عني، ولم تفلح توسلاتي لها بالبقاء في غير معرفتي بنزولها في صباح الغد إلى وسط البلد.

متعب، يكاد الإعياء يقتلني من شدة السفر على الطريق الصحراوي، لكنني استيقظت مبكرًا، وابتسمت لما رأيت نظرة الخوف والعتاب على وجه أمي، غير أن بسمتي لم تفلح في كبت السؤال الذي تردد قويًّا داخلها حتى نطقت به: «إلى أين مبكرًا هكذا؟» وكذلك لم يفلح احتضاني لكتفيها بكفيّ ولا هدوء صوتي

وأنـا أهمس في أذنهـا: «أتفرج علـى الدنيا والنـاس»، ففتحتُ باب البيت البراني وجلسـت على الدكة الخارجية، أشـرب الشـاي على مهـل حتى اقتربت السـاعة من الثامنـة، وحتى أصبح كوب الشـاي أبرد من زجاجة كوكاكولا مثلجة، تجرعته وتشـاغلت بأشياء أخرى كثيرة وتافهة، سـويت ملابسـي ومشطت شـعري ومسحت حذائي الذي لا أشعر به في قدميّ من أثر البيادة العسكرية، وأشعلت نصف علبة سـجائري في الهواء الذي أتنفسـه، حتى أتت التاسـعة وعبرتْ سعاد الشارع، وألقت بطرف عينها داخل بيتنا، فمشيت وراءها حتى ورشـة النجارة، مكان انتظار العربات «السرفيس» الذاهبة إلى وسط مدينة قنا.

نزلنا عند دوران مسجد سيدي عمر متباعدين مثلما ركبنا العربة متباعدين أيضًا، وراحت سعاد تأخذ طريقها في صعود ارتفاع شارع بحري البلد الذي ينتهي عند التصاقه بمؤخرة شارع السوق الفوقاني الذي تقصده، ولـم أسـأل نفسـي هل أصبح سـيري خلفهـا قدرًا لن يفارقني من بعد، أم أنه مجرد الحذر فقط.

حركة السوق بدت بطيئة فلم يكن اليوم الخميس، زحام خفيف يحمي من العيون ولا يعوق الحركة، اختلسنا خلاله النظرة والبسمة ولمسـة اليد، واشـتباك الأصابع الذي يصيب الجسـد بالتنميل حتى أصابـع القدميـن، ولمـا غمرنا شـعور البُعد عن العيـون المتلصصة تلكأنـا كثيـرًا بطـول السـوق وعلـى عتبات محـال الأقمشـة، حتى

أكملت شراء كل حاجياتها ولم نعرف بعدها إلى أين يمكن أن يكون الذهاب.

الأرض واسعة، مفروشة بنجيلة خضراء مرتفعة، ومقسمة بأسوار من أشجار صغيرة، في المنتصف يقف مبنى الإدارة والبوفيه والحمامات وقد أُعد سطحه ليكون صالة فسيحة للأفراح، أما الأطراف على جانب السور الخارجي، وعبر نقاط غير منتظمة داخل المربعات والدوائر التي صنعتها الأشجار الصغيرة، فقد وقفت الأشجار العالية لتظلل ساحة كافتيريا نادي البحر حتى في جانبها الذي نجلس فيه على شط النهر، وتمنع عنها عين الشمس المتحفزة لِلَسع وجوه الناس وإجبارهم على الفرار إلى تحت سلطانها الذي تجتهد في فرضه على الأرض، وهكذا أخذت أشعة الشمس في التلصص من بين أوراق الأشجار، والالتفاف من حول فروعها، حتى نفذت وسقطت في دوائر ضوئية غير مستقرة على وجه سعاد وهي تجلس أمامي، وأخذت سعاد كلما أحست بلسعاتها تميل بجسدها للأمام وللخلف في محاولات مستمرة للنجاة، مستمرة حتى في فشلها مرة بعد مرة مع تغييرها لمكان الكرسي الذي تجلس عليه، بدت كأن الشمس الحارقة تتعمد ملاحقتها ولسعها وأنا أضحك من عدم استسلامها لما اعتبرتُه أمرًا واقعيًّا ورضيتُ به، أن توجد بقعة من الشمس الساخنة على وجهي تسترق اللسع، وأن أظل أقاومها

بالتعديل من وضعي حتى تخف وطأتها أو تنتهي تمامًا، بينما أستمر في مزاولة جلوسي أو نشاطي أو حياتي في هدوء.

لكن سعاد لم ترضَ ولم تستسلم، وظلت منشغلة بمحاولاتها عن حديثي الذي أحاول التعبير من خلاله عن مدى اشتياقي وحنيني إليها طوال الشهرين الماضيين، ولم تنتبه إلا حينما أخبرتها عن رغبتي في أن نذهب للجلوس منفردين في شقة أحد أصدقائي بالمدينة، عندها فقط انتفضت واقفة ومنتبهة تمامًا، كأنها لم تكن منشغلة عن حديثي قط، وأن ما كانت تتصنعه لم يكن إلا هروبًا بشكل ما من مجاراتي في مشاعري التي ربما رأت أنها قد تأخذها إلى تخوم لا يجب الوصول إليها أمام أعين الناس، وكان غضبها يزداد أثناء الوقوف حتى تجسد في يديها وهي ترفعهما عاليًا لتخبط بهما المنضدة في قوة، اهتزت المنضدة ووقعت زجاجة الكولا المثلجة على الأرض، فسال سائلها الداكن على النجيلة الخضراء، بالكاد نطقت سعاد في حُرقة وعتاب: «أتقول هذا الكلام لي أنا يا محمد؟!» وراحت تَحُثُّ السير وهي تخرج من الكافتيريا، ورحتُ بعد أن دفعت ثمن السائل المسفوح الذي لم أستلذ به أكاد أجري من خلفها حتى تجاورنا في صمت، وكانت وجهتنا هذه المرة معروفة.

داخل عربة السرفيس في طريق العودة جلست سعاد في المقعد الأخير للعربة، وتعمدتُ الجلوس إلى جوارها، كانت لا تزال صامتة، وجسدها يفور من الغضب في تنفسه المتلاحق، ولم أكن أعرف أن المرأة تستطيع الوصول إلى هذه الدرجة من الإثارة أثناء غضبها ممن تحب، لكنني رأيت السوتيان الذي تحددت معالمه من وراء بلوزتها على هيئة ما يُخفي تحته من نهدين صغيرين متوثبين، يرتفعان ويهبطان في سرعة تنفسها الحاد، كما رأيت وحشًا يعلن عن ثورته بين فخذيّ ويدفعني قويًا باتجاه الرغبة في ضمها حتى تتكسر ضلوعها وضلوعي، قربت فخذي لفخذها، فأبعدتْ فخذها ورمقتني بنظرة أرادتها حادة وقاسية، لكنها تفتتت على وجهها عندما قرأتْ الرغبة في عينيَّ، فأسقطتْ عينيها إلى حجرها، حينها قربت فخذي وكتفي وحضنت كفها بيدي حتى احتويتها تمامًا، وحين هممت أن أهمس في أذنها بكلمة «أحبك» راح الناس يتململون في مقاعدهم وهم يستعدون للنزول، فالعربة تتجاوز الآن كوبري «المعنى» الصغير لتدخل إلى قلبها، معلنة انتهاء رحلة العودة إلى بلدة تُحلِّل القتل وتُحرم العشق، وتفرض، حتى على الزواج، شروطًا لا إنسانية بالمرة، تقف دونها رائحة الدم لتطاول السماء، فكان لزامًا أن تنتهي جلستنا.

في انكسار الشمس قبل الأفول كان العيال يزحمون الشوارع، أسرابا من أفئدة صغيرة وبريئة، يفترشون الأرض في دوائر وحلقات

يلعبون «السيجة» ويجرون خلف بعضهم، يستترون خلف الأبواب المفتوحة وزوايا البيوت الواطئة والناتئة في شوارع البلدة الضيقة، يلعبون «الأستغماية» و«لبس الحمام طاير»، وجوه فرحة وعيون يقظة، وأجساد تحلق كالطير وتدور كالفراشات، لا يحُدُّها الدين ولا القبيلة ولا الجنس، ولا يسأل الأهل عنهم إلا حين موعد العشاء، حين تقف الأمهات فوق عتبات البيوت يندهن بأصواتهن العالية، ويغلقن الأبواب إذ يتوارى الطير الصغير خلفها.

انقشع النهار وجَنَّ الليل، ولم تخرج من بيتهم بعد

هذه البنت التي نزلت من السيارة

مسرعة الخطى نحو بيتهم القديم

لا تلوي على شيء

لم تكلف نفسها تعب النظر إليّ

ولم تتركني أنظرها

نظرة

تُفتت الغضب الجاثم على وجهها

وتعود إليّ بصك غفران المحبة

فهل كان وجهها المتسربل بالجمود

مثل مئذنة تضن بصلاتها الغافرة

تواقًا لرؤية العهد المغبر بالمناديل البيضاء

أم كان يهوى وقتها تعذيبي؟!

وكيف تسلَّح بالعذاب المر حين توارى

في ظل جدران بيتهم القديم

كنت قد أبدلت ملابسي، وأكلت بنهم شديد يشبه الغيظ إلى حد بعيد حين حضر طعام الغداء، بعدها ذكَّرني لون الشاي الغامق بالسائل المسفوح على النجيلة الخضراء، أما فترة الظهيرة فقد افترشتُ فيها الدكة الخارجية في الشارع منتظرًا خروجها، أو حتى مجرد إطلالتها من وراء باب موارب، أو نافذة تُركت مفتوحة عن عمد بعض الشيء، أو حتى من وراء جدار مصمت قتلته رؤية المحبين الفاشلين من قبل حتى رقَّ قلبه وشفَّ، هكذا أصبح الخروج غفرانًا، لكنها لم تغفر ولم تخرج ولم يرق قلب الجدار، حتى لم يعد في الشارع غير الصبية الذين يجرون خلف بعضهم ويملأونه بذرات الغبار التي تعلو في السماء وهي تستعد الآن لقدوم ليل أبدي، أظنه سيدوم مع خروج الوجه الأسود للبنت السوداء في البيت المقابل، وقد أحس بعودتي فترك بابه مواربًا، يُطل عليّ وأتحاشى نظراته المسلطة في قوة، وابتسامته الخبيثة المزهوة بنصرها في وجه هروبي.

وهـا هو الليـل يجيء حقًّـا، فقد اختفت أجسـاد الصبيـة وأُغلق الباب المقابل عن الوجه الأسود، خلا الشارع تمامًا، ومع تقدم ثِقل الليل تهدأ الأجسـاد وتغفو، بينمـا أظل وحدي يقظًا وملتاعًا ومعذبًا بالوحدة والشـوق والحنين المكبوت الذي فشـلتُ فـي التعبير عنه لسـعاد، وأفشـل الآن في إخراجه من داخلي وسـط زخم لا قبل لي بـه فـي ضروب الوحـدة، وأوقات القهـر التي تقتل الجسـد وتغطي الروح.

عبـر نافـذة الغرفـة العلوية أطـل الظلام مسـيطرًا على الشـوارع والبيـوت، وتمـدد بطوله فوق أطلال الحقول القابعة على اسـتحياء بأطـراف البلـدة مُخفيًا خلفه السـماء بـكل نجومها، بحيـث لـم يعد يسـكنها شـيء غير وجـه باهـت لقمر ضعيـف وعاجز عـن إيصال نـوره لأرضنا المظلمة، والتي لـم يكن شـيء فيها غير مصباح صغير يتدلى ضوؤه الأصفر الباهت من انحناءة عمود رفيع وواهن، بالكاد يرسـل أشـعته المريضة على تراب الأرض المعجون بالماء الوسخ للغسـيل والاسـتحمام، كاشـفًا عن حقيقته النتنة التي امتزجت فيها روائـح الصابون والعرق وبقايا الطعام الحامض وجنابات متلصصة وضعيفة وخائنة تحت الليل وسواد قلوبهم الصلدة.

آه يا محمد، ستون يومًا قضيتها في وحدتك العسكرية، مغموسًا بيـن دفاتـر حل رمـوز الشـفرة وحماقات الصـول أحمـد الحماقي

وطوابير الصباح الباكر وحمل الطوب الأسمنتي ونوبتجيات الأجهزة والنوم على رمال ببرودة الثلج في فترات الخدمة الليلية، ثم تعود ولا تجد غير الظلام.

أرسلت زفرة حارة، ورأيتها وهي تخترق صدري وتدفع بحرِّها إلى الخارج فوق البيوت المظلمة، تكاد تحرق الأشياء والعالم، فيدخلني خوف عميق إذ أرى نفسي تُطلق سحرها الشرير من مخبئه في وجه العالم، فأهِمُّ بإغلاق نافذتي لأحبسها، لكن نارًا أخرى تفتح نافذتها المقابلة في وجهي وتجبرني على البقاء في وجه جسد صلد رفيع، ووجه أسود، هل كان يلمع من أثر احتكاك الصابون الجامد، أم سقوط أشعة العمود الصفراء الباهتة عليه؟! لوَّحت البنت مبتسمة لكنني ظللت جامدًا أنظر في سكون ودهشة، لوَّحت ثانية وزادت من بسمتها، فأخفضت بصري ورجعت إلى الداخل حتى تواريت عن وجه القمر، ووقفت أحدق في وجهها، تركت البنت السوداء نافذتها ورجعتْ للداخل حتى وقفتْ أمام مرآة مثبتة في الحائط الجانبي لغرفتها، وبدأت تمشط شعرها وتتحادل وتسكن ثم تخلع جلبابها وتلقيه في وجه النافذة ناحيتي فيسقط في الداخل، وفي القميص المشتعل بالشهوة السوداء بدأت رقصتها المجنونة وهي تخرج لسانها طويلًا يكاد يصل إليّ، تنظر في المرآة وتهدهد نهديها من فوق القميص، ثم ترتفع بكفين ملؤهما البطء والدلال

لتتخلل أصابعهما الشعر المجنون، ثم تسفلان إلى العنق، وتمران على الكتفين فتنزلق الحمالتان لتبرز أعالي النهدين في تحدٍّ وقوة، وحين تسقط الكفان إلى الجانبين يطوِّح القميص أرضًا، ويشتعل الجسد العاري بحركات عشوائية لاستكمال رقصته المجنونة رواحًا ومجيئًا في فضاء الغرفة، وهو يرمقني ضاحكًا وشامتًا وساخرًا، فلا أقدر على شيء سوى أن أتلذذ بالاحتراق العظيم لنار تلسع وتحرق وتنخر في العظام، أتلذذ بفوران الجسد وفقدان السيطرة عليه.

أُشير إليها باستكمال جنونها، لكن البنت السوداء ترفض خلع لباسها وهي تنظر إليَّ بعينين لئيمتين وترسم بأصابعها في الفضاء صورة لعقد مكتوب وموثق، لا يمارس الناس الجنس هنا إلا بعد أن يضعوه في خزائنهم، فأسير مقتولًا إلى فراشي، أتمدد عليه ميتًا وعاجزًا وغير قادر على شيء سوى أن أحملق في سماء الغرفة، حتى تأتيني البنت عبر فضائها المغلق، بيضاء وعارية وشفافة، لكنني أُفلح في إدخال ناري إلى عمقها السرابي، وعندما يصبح مائي في رحمها كثيرًا يغرقني ويبل فراشي، تهمد اهتزازات الكنبة، وترفع الحيطان آذانها، وتنطفئ عين المصباح بحيث يعم الظلام العالم، وبحيث أشعر بوجع شديد في جسمي وكأنني أروح في غيبوبة وسلام، يُشبه إلى حد كبير سلام الموت الحقيقي لنوم مؤقت.

شعرت فجأة بوخز في كتفي، ورأيت الركاب يصطدمون بي وهم يتململون في مقاعدهم استعدادًا للنزول، فقد فارقت السيارة

«البيجـو» كوبـري الجامعة الأسـمنتي الضيـق وأخـذت تتلوى في شـوارع أسـيوط، وها هـي الآن تدخل الموقـف الكبير الـذي يميز المدينة بسـهولة مواصلاتها، حيث موقف السـيارات والأتوبيسات ومحطة السكة الحديد في بؤرة واحدة.

خطفت شـنطتي الخضراء متوسطة الحجم، ونزلت من السيارة مسرعًا باتجاه موقف الأتوبيسات، تخطيت السور الحجري الصغير الـذي يفصلـه عـن مكانـي، وتحركت صـوب المـكان المخصص لأتوبيس مدينة الخارجة، فصدمني الفراغ.

أرانـي الآن أقف وحيـدًا في موضع الأتوبيس الغائب، بين يديّ شـنطتي الخضراء لكن ظلام العالم يُحلق في سـمائي، أقف وحيدًا في وجه السؤال الصعب.

2

فقط عندما أكون مُسافرًا تحدث الأشياء في وقتها؟!

وضعت شنطتي الخضراء، متوسطة الحجم، على الأرض وجلست فوقها، ساحة الموقف واسعة تملأها أتوبيسات وسيارات تذهب الآن إلى كل أماكن الدنيا عدا مدينة الخارجة، دفنت وجهي في كفيّ وحركتهما للوراء في يأس وقلق، أمسح العرق الكثيف الذي تكون في جبهتي، فتساقطت حباته على الأرض متلاحقة، وفي غزارة المطر الذي يُقلق بيوتنا الطينية في برد الشتاء، وعندما دفنت وجهي في كفيّ مرة أخرى عرفت أنني أريد أن أختبئ من مواجهة نفسي، من مواجهة مصيري المحتوم بالسجن إن أنا وصلت إلى وحدتي العسكرية متأخرًا عن موعدي في العاشرة مساء، ما بقي من الوقت بالكاد يكفي لقطع المسافة، فماذا يجب عليّ أن أفعل؟ وهل أقدر على فعل شيء من الأساس؟

ولما غرقت أصابعي في لزوجة عرق الأسئلة، وملحها الذي يحرق رأسي ويشل تفكيري، نفضتها في الهواء محاولًا التخلص

من فيض الأسئلة التي تتلاحق في قوة وإلحاح، وكأنني أتخلص من بقية الماء المالح الذي علق بها.

أسندت ذقني لباطن كفي اليسرى متكئًا بكوعي على ركبتي، بينما أمسكت يدي اليمنى بعصا صغيرة كانت ملقاة في إهمال على الأرض إلى جوار الشنطة، وراحت ترسم على الأرض الترابية خطوطًا متقاطعة ومتشابكة، تابعتها عيناي في غير اكتراث، فقد بدأت أشعر بأن أعضائي تتحرك بإرادتها الذاتية بعيدًا عن إرادتي، ورأيت عقلي يتوه وتتقافز الأفكار والهواجس إلى عمقه الداخلي متشابكة ومتقاطعة أيضًا، في العاشرة مساءً عليّ أن أكون هناك في وحدتي العسكرية، ولا أعرف كيف؟ لكنني أعرف الآن يقينًا أنني أسُبُّ ممدوح وأصب جام غضبي على رأسه، وأُحمِّله مسئولية تأخري، فقد انتظرته طويلًا في مقهى موقف سيارات قنا، ست عربات «بيجو» امتلأت بركابها ورحلت وأنا واقف ومنتظر ومترقب، ولما لم يأتِ اضطررت إلى ركوب العربة السابعة.

فهل كان عليّ انتظاره، أم كان عليه تأخيري؟!

أكره السجن فهو يحجبني عن تأمل العالم، لحظة سكون يقفز خلالها وجه سعاد، أبيض مدور، يتناثر حوله شعر أسود كثيف حريري الملمس، حتى إذا تجلى أمام عينيّ كاملًا ومتجسدًا ومهيأ لاشتعالي، قبضتُ على شفتيه بقوة، وطبعتُ فيهما علامة العشق.

كيف بدت سعاد على هذه الدرجة من العند والحسم، والقدرة على الوقوف أمام رغبتها فيّ، واشتهائها الدائم لاختراق جسدي، والبحث عن صورتها المطبوعة داخل جدار القلب، كيف لم تفلح توسلاتي الصادقة في انتزاع العفو من جدران قلبها التي أحكمت غلقها في وجهي، وهي تصب عذابها فوق رأسي وقودًا تشعله بدموعها الحارقة وتتهمني أنني فكرت فيها مثل بنت من بنات الشوارع، كنا نعلم أن زواجنا مستحيل في هذه البلدة التي لا تختلط حيواناتها المنوية بين القبائل حفاظًا على الأصول المزعومة، لكننا نعلم أيضًا وبنفس القدر بأن في قلبينا حبًّا يكفي العالم كله، وفي جسدينا نارًا تكفي لإحراقه إذا هو لم يوفر لهذا الحب بيئته الصالحة للنمو والاكتمال، والوصول إلى قمم نهاياته التي تُهدِّئ من روع القلب وتكفكف دموعه النازفة، كانت سعاد قد جلست على الأرض ليخفيها السور الواطئ رغم ظلام الليل وظلمته الكحل فجلستُ إلى جوارها ومددتُ أصابعي إلى وجهها، فكان مع كل دمعة أزيحها يسقط جدار من الجدران التي أغلقت القلب، حتى إذا انتقلت دموعها جميعًا فوق أصابعي انفتحت غرف قلبها تمامًا، ورَقَّت وتبعثرت قبلات حانية ومبلولة فوق أصابعي، ترسل طراوتها بنهم فيتشوك جسدي كله ويترنح في جلوسه نحوها، فتسنده في حضن كبير ودافئ وتقع به على الأرض، فأتمدد فوق

طراوتها المعجونة باللحم والدم والحب والحنين المكبوت، وأغوص في شفتيها وبين تضاريسها حتى أصبحت لحظتنا واحدة، متشابكة ومتقاطعة، ولم يعد بيننا من حدود، حينها فقط تعثرت خطوات الأب العمياء في الكراكيب المتناثرة فوق السطح القديم، وهي تبحث عن ابنته التي نادى عليها طويلًا لتسقيه من ظلمة الليل الذي يعيش داخله، ولما لم تصحُ، ولم تعثر أنامله عليها في مكان مرقدها، صعد ليبحث عنها.

- سعاد

كان صوته حادًّا ومنذرًا وفي وقته تمامًا، كأنما تعمد اللحظة، فأسقطها من جنة السماء إلى نار الأرض، فهبَّت سعاد لتزيح النار من فوق فخذيها، ولتقف بين يديه مطرقة بانكسار، وكان عليها أن تتحمل انقباض إحدى يديه حول عنقها، وصفعات يده الأخرى فوق وجهها، عقابًا على جلوسها في هدأة الليل التي حذَّرها منها طويلًا، وشكًّا يجوس في قلبه باطمئنان شديد ويُخَوِّفه من رؤيتها لي على السطح المجاور، وكان عليّ أن أكتم أنفاسي لحد الموت أيضًا لكي لا تشعر بي أُذنا الرجل في هدأة الليل، ولا أن تتحسس أنفاسه رائحتي.

أعرف الآن أنني لا أصب لعناتي على رأس ممدوح لأنه كان السبب المباشر في تأخري فقط، بل لأنه يبدو لي الآن السبب

المباشـر في تمردي على حبي العذري لسعاد، وجعلي أحاول القفز به من تخوم القلب، إلى حدود الجسد الذي لا يشبع ولا يرضى.

وأفيق على صرخات الأتوبيسات والعربات التي تخرج وتدخل إلى ساحة الموقف، تتحرك وترسو إلى جواري في أماكن مخصصة لبـلاد كثيرة، ليس من بينهـا المدينة الخارجة، نظـرت تحتي فرأيت العصا الصغيرة في أصابع يدي اليمنى قد رسـمت خطوطًا متشابكة فـي تقاطعهـا، كأنمـا شـبكة حديدية حُـدِّدَتْ مـن جوانبهـا الأربعة بمسـتطيل عريـض ورأسـي، كأنـه إطار خشـبي ثُبتـت فيه الشـبكة الحديديـة، تخيلـتُ وجهي خلفهـا فبدا أحمر داكنًـا، تمامًا كما كان في مرآة السـائق الأمامية، وهو يحبو بسـيارته السلحفاة فوق كوبري الجامعة الضيق، حطمت بقدميّ الإطار والشـبكة وسـويت الأرض مـن تحتـي تمامًا، ورسـمت بنفـس العصا شـكلًا على هيئـة الطير، جعلت له جناحين كبيرين، ولما نهضت ممسكًا بشنطتي الخضراء، ومتجهًـا صـوب موقـف السـيارات كان جناحـا الطائـر مـن خلفي يسـتطيلان ويتضخمان حتى ضاق بهما المـكان الذي ظللاه تمامًا، فأخذا يحاولان التحليق.

فـي الصبـاح الأخيـر، وأنـا أجمـع أشـيائي القليلـة في شـنطتي الخضـراء، كان الصخب عاليًا في الشـارع بالخـارج، لن أقول إنني صحـوت عليـه، لكنـه كان أول ما طـرق أذنيّ في الصحـو، وداخل

البيت كانت الحركة، على غير عادتها من الهدوء القاتل الذي يجمعني بأمي عادة، عندما نصبح وحيدين بعد ذهاب إخوتي إلى مدارسهم، وقانونًا فرضته عليّ منذ أن عرفتْ بحبي لسعاد، بدت أمي وهي تُحَوِّط إخوتي لتمنعهم من الخروج إلى الشارع بعد أن منعتهم من الذهاب إلى المدرسة، مثل فرخة ترقد على بيضها وتفرش جناحيها من حوله، حتى نظرتها لي، والتي تَقْدُم نحوي من أول البيت خلف الباب المغلق، بدت مثل ريشة تطير باتجاهي لتهبني نصيبي من الظل والحماية مثل إخوتي القابعين الآن داخل قشور بيضهم، ودار الحديث حول تجميع والد سعاد لأبناء قبيلته للتصدي للشباب الذين يؤازرون الثورة القائمة على أشدها في القاهرة ومعظم محافظات الوجه البحري، والتي اتخذت من ميدان التحرير رمزًا لصمودها في مواجهة النظام، بينما اعتاد عدد قليل من شباب قنا التجمهر في ميدان الساعة بقلب المدينة، بعد أن ضرب الأمن المركزي مظاهرتين لهم، كانت الأولى بعد صلاة الجمعة أمام مسجد السيد عبد الرحيم، وبدأت وقائع الثانية من أمام القسم لتنتهي أحداثها أمام مبنى عمر أفندي، بعدما استخدمت الشرطة القنابل المسيلة للدموع.

فَرِحْتُ تمامًا، ليس لأن هذا الحدث أنبأني بانتشار الثورة في كل الأماكن، حتى الراكدة منها، بل لأنه كسر جدار الصمت بيني وبين أمي، ورغم أن بسمتي قد انتشرت سريعة لتملأ فضاء البيت

حتى كادت تطغى على نظرة أمي القلقة، إلا أنني لم أكن أدري إلى أي شيء يمكن أن ينتهي مثل هذا الحدث الضخم، الذي يهز ركود بلادنا لأول مرة منذ زمن بعيد.

كان لابد من تخطي السور الحجري للدخول إلى موقف السيارات والاتجاه صوب المكان المخصص لعربات الوادي الجديد، لقد بدت المدينة الخارجة على كاهلي مثل جبل لا يزيحه غير السفر إليها، لكن المكان الذي بدأ يعج بالمسافرين كان خاليًا تمامًا من العربات، وكان عليّ استيعاب ما يحدث لأفهم الأمر ثم أحاول أن أتدبر أمري من بعد، أرسلت بصري محدقًا في الجمع أمامي، أغوص في ملامحهم ذات الأشكال والألوان والتعبيرات المتباينة، حتى التقطت أحدهم بصعوبة من وسط انشغالات عميقة وحائرة جعلت كلًا منهم يحاول التقوقع على ذاته فقط بحثًا عن خلاصها، بدا الشاب رفيعًا ذا لون أصفر باهت، الناعم الطويل شعره والفائض من تحت طاقيته الصغيرة المُحكمة، يتدلى على عنقه مبلولًا بماء العرق المتكوم، ومغطيًا ياقة جلبابه الأبيض، فيما اندست قدماه في حذاء أسود، انطفأ لونه من تكالب غبار الأرض عليه، بدويًّا خالصًا بدا، في جفائه وحدته وحرصه الشديد على شنطته الصفراء الصغيرة التي يُحكم قبضته عليها ويمنعها من الاصطدام بأجساد المتزاحمين، ولما فشلت محاولاته في ضمها إلى صدره، أحاطها بذراعيه مثل طفل صغير أذهله صخب الدنيا،

وقـف الشـاب النحيـل إلى جـواري وكان الضيق يطبـع على وجهه علامـات غضب كامن ومألوف، يندلق من أزمان سـحيقة وموغلة، ألهـب وجهه حتى كاد الدم القديم ينسـكب منه، حاولت امتصاص غضبه وأنا أسـحبه ببطء إلى جوار حائط السور مستفسرًا عن الأمر، فما الذي جعلني أختار هذا الشاب تحديدًا لسؤاله؟

ومـا الذي دفعنـي لاحتمـال عصبيته وهـو يخبرني بـأن عربات الخارجة قد رحلت جميعها، وأن أحدًا من سـائقي أسـيوط لا يقبل الذهاب بالمسافرين بحجة قرب دخول الليل مما سيضطره للمبيت بمدينة الخارجة، فضلًا عن العودة بلا مسـافرين في الصباح التالي، وبمجـرد انتهائـه من الكلام وليـت وجهي بعيدًا عنـه وارتكنت إلى حائط السور، معتبرًا إهانتي هذه له إجابة عن أسئلتي الغاضبة.

الانتظـار صعـب، ليس له وجـود في مثل حالتـي، ولا مبرر عند الصول أحمد الحماقي الذي سيسـعى بكل تأكيد لكي يحقق بسبب تأخـري هذا رغباته السيئة والمكبوتـة نحوي، أنا الجنـدي الوحيد الذي اتخذ من تميزه في سـلاح الإشـارة وسـيلة لتحقيق الندية معه عنـد القائـد، يا الله آلآن وقـد أصبحت رديفًا، ليس بينـي وبين إنهاء مدة خدمتي العسكرية سوى أشهر قليلة؟!

بعيـدة مدينـة الخارجـة، لهـا إعجابـي ودهشـتي وفيهـا حزنـي وانكسـاري، أيتهـا المدينـة القابعـة على جـدار القلب لـك التزامي

بواجبـي، متهـدل بدني في الوصـول إليك، ومترجرج جسـدي بين الجدران الحديدية لوسـائل المواصلات العامة، المتهالكة، فكيف بـي الآن، وليـس بيني وبينك شـيء يقلنـي إليك، في تأخـري عنكِ مصيبة تشق جدار النفس وتحجب الرؤية عن عينيّ، ما بال الشمس ترسـل أشـعتها لعينيّ وحدي، ما بال عينيَّ تزوغان وجسـدي يترنح في وقوفه، تحسسـت جدار السـور من خلفي فارتكنت بظهري إليه وشـعور قاتل بالوحدة ينتابني، فهل تركني ممدوح مرة أخرى؟ هل أنا الآن في انتظاره؟!

في موقف أتوبيسـات الخارجة قال إنه سيشتري الساندويتشات بنفسه، وقد حدد حين أشارت يسراه للجانب الآخر من الميدان نفس المطعم الذي نُفَضِّله، وراح بخطوات رشـيقة يشـق الميدان الخالي في ذلك الوقت إلا من غبش ما بعد السَّحَر، وتراتيل المصلين أنغامًا تأتي من المسجد في طرف الميدان، كانت روح طائر تتشبث بقدميه، رغم أنه متعب ويرسـم الغبش على وجهه آثارًا عميقة للسـهر، يا لها من ليلة نستقبل أحباءنا بعد أن تولي، كأنها تنسل من أرواحنا، وكأن الأرض توقفت عندها عن الدوران، فبدا الصبح بعيدًا عنا بمسافات زمنيـة موغلة في العمق، كنا على سـريرينا صامتين وكأننا خصمان، لأن حدثًا وقع اعتبره ممدوح شـنيعًا وتغاضيت عنه، حيث كان أول الليـل يُلقي عتمته على الصحراء من حولنـا فتضيق الأرض وتقصر

المسافات، وأعيننا رغم البُعد والعتمة ترى موقعنا ونحن نصعد التَّبَّة إليه كأنما نصعد إلى السماء، إلى القمر الذي ينيرها، سكون ليل الصحراء أكثر هدوءًا من هدوء موقف الأتوبيسات الآن، كخفقة قلب مطمئن، وكان الهواء باردًا ومنعشًا، فلم يَدُر ببال أحدنا، ولا اللحظة كانت تستوجب لقاءه، إذ قليلًا من الليل ما كان يهبط إلى أرض الكتيبة، لكننا لقيناه، صاعقة سقطت فاحترقنا واقفين في حضرة الصول أحمد الحماقي، وهو يقول محتدًّا وساخرًا.

- أخذت تصريحك يا محمد؟

عتمة الليل تكاد تخفي جسده النحيل، وتزيد نفسه ثقلًا وغورًا في أعماق سحيقة وموحشة، بحيث يأتي صوته أجوفَ، مخيفًا، صدى لعفريت خرافي يقفز من حكايات الجدة التي أثقلها النوم وأتعبها التخيل والكلام، صوت له خشونة الرمل وقسوة جفاف الصحراء وهو يحتك بأذني فيُحدث ذلك الألم الحاد في وجعه، والذي لا خلاص منه إلا برَدِّ الإجابة لمحاولة إنهاء اللقاء، حتى لو أتاح له ذلك أن يتركنا بسعادة كبيرة وشعور غامر بنصر زائف في ليل أسود يُخبره بأنه قد نجح في إهانتي والسخرية مني وتهديدي في حالة التأخر عن موعد العودة، لكنني أفقت من ثقل حضوره على غياب ممدوح أيضًا، وكان قد تركني هو الآخر، بالكاد لمحته في قمة التَّبة وهو يصعدها عدوًا وغضبًا، وارتفع بصري للسماء مع اختفائه فكانت خاوية، ولم أدرِ أين ذهب القمر.

شعرت أنني مهزوم، رغم أن أسلحةً لم تكن في يدي، وفي الغرفة واجهني ممدوح بكل الغضب الذي جمعه في صعوده السريع لقمة التَّبة.

- لماذا تتركه يعاملك بكل هذا السوء؟!

- أنت تعرفه جيدًا، وتعرف كسله وحقده.

- اشتكِه إلى القائد.

- أيصح أن أدخل في صراعات وأنا رديف؟ هانت لم تبقَ غير شهور قليلة.

- أنت.........

وكتم غيظه وسط فورة هائلة لبركان من الغضب لا أعرف كيف أمكنه السيطرة عليه، لكن رائحة شياطه المكتوم في ثقل قيدت كلًا منا إلى سريره وكأننا خصمان، غير أننا ونحن نجمع أشياءنا المكدسة في دولاب واحد وقت السَّحر للاستعداد للرحيل عرفنا أن حبل الكلام بيننا لن ينقطع ما دمنا نستمده من مصدر واحد، فدار بيننا حديث طويل من المصالحة حتى عاد الهواء باردًا ومنعشًا، لم يزل يُحيطني ببرودته، ويُدخل انتعاشته في بدني، وأنا أقف على طرف الميدان أنتظر ممدوح حتى قدوم أتوبيس السادسة صباحًا المتجه إلى مدينة أسيوط.

في ذلك الوقت بدا ممدوح يحمل لفافة بين يديه ويشق الميدان نحوي، وتواترت أجساد المصلين تخرج من المسجد، وخرجت سيارة «بيجو» من شارع السوق لترسو في بطء على حافة الميدان المجاورة، تصلبتُ قليلًا أرقب الميدان الذي بدأت تدب فيه الحركة، والصبح الذي بدأ يقتحم الليل في جسارة، حتى أن غبش ما بعد الفجر يتلاشى الآن سريعًا مع تفجُّر أشعة الشمس، وزرقة ما في السماء تسيطر عليها، وتوقف ممدوح في وسط الميدان يرقب معي السيارة «البيجو» وقد تجمع حولها نفر من الذين خرجوا من المسجد، تبادلنا النظرة المتفقة وهززنا رأسينا، كنا نَحُدُّ السير صوب السيارة بعد ما قررنا في نفسينا عدم انتظار الأتوبيس، فتساقطت أشعة الشمس تساقطًا خفيفًا، رأيتها خلف نافذة السيارة، قُرب الأفق البعيد، تصعد إلى السماء بخطى وئيدة وحانية، برتقالية اللون وناصعة ولها في مثل هذا الصباح المبكر دفء يُستلذ به، تلقي ضوءها الممتلئ على الطريق أمامنا، وتمتزج بالرمال جاعلة لصُفرتها بريقًا ينشر روحه من حولنا، وتلتمع أشعته فوق رءوس الجبال الممتدة على الجانبين قربًا وبعدًا من الطريق كإشارة أو دليل، وانبسطت الطريق أمامنا تشق الرمال والجبال، تمتد كبئر لا قرار لها لتهوي السيارة فيها بانسيابية حرة ودافقة، وهفَّتْ الريح هفيفًا جميلًا تلمس سطح الصحراء ولا تحركه، وتدخل السيارة عبر نوافذها المفتوحة محملة بهواء نقي أنعش أجسادنا المرتخية على مقاعدها، وبرائحة الصحراء التي لا أملك تجاهها شيئًا سوى

أن أتشـممها متلذذًا دون تفسـير، وهي تدخلني لتُبَدِّد كل آثار التعب التي رَسَّبها في بدني سهر ليلة البارحة، وتُسلمني إلى صحو مكتمل وسط جزيرة النوم التي يغطُّ في بحور رمالها بقية الركاب.

ويرنـو السـائق إليّ مبتسـمًا، بعد طـواف أعيننا عليهـم، ويأتيني صوته يحمل نفس البسمة.

- منور يا أستاذ.

- الله يخليك يا أسطى.

ويعتـدل محدقًـا أمامه، ومـع ازدياد بسـمته تنفلـت منه ضحكة ساخرة تردد.

- صباحنا فل.

يفصلنـي عنه في المقعد الأمامي ممدوح، محنطًا كجثة فرعونية تشع حياة وكبرياء، حتى في سكونها النائم وهي تُسلم ظهرها للمقعد، وتلقي برأسـها للوراء تنظر سقف السـيارة بعينين مغمضتين، وكلما تأملتـه جيـدًا أدركتُ أن لـه نفس ملامحي وطولي ونحول جسـدي وسُمرة بشـرتي، غير أن طائرًا متمردًا يسكن روحه فيهبه روحًا تهفو نفسي إليها، كأنما تهفو إلى حياة حقيقية بعيدة المنال.

أنا جبان!

كان هذا اعتقاده فيّ البارحة، وهو يهُبُّ في وجهي بفيض حديثه الغاضب، ثم ينظر كعذراء في سـقف الغرفـة البعيد، يلوح بيديه في الفراغ كأنما لا يراني، ولا يوجه حديثه إليّ.

- لماذا أنت هكذا؟!

وأرنو إليه مدهوشًا ومحبًّا.

- ماذا تقصد؟!

- مسالم أكثر مما يجب.

- أهذا سيئ؟!

- أكيد، عندما تكون هناك حاجة للتمرد.

- مثل ماذا؟!

- مثل ماذا، مثل كل ما نحن فيه يا محمد، الظلم والقهر والكبت، التفريق بين الناس وجعلهم طبقات يأكلون بعضهم، العادات والتقاليد المتوارثة بنفس خيباتها القديمة، ثمة أشياء كثيرة يجب أن تُهدم، والعالم يتحرك باتجاه هدمها الآن، بينما أنت ما زلت تحلم وتتمنى أن تتغير من تلقاء نفسها، لا، الواقع غبي، يجب أن تكسره وإلا سيضعك تحت قدميه حتى الموت.

وكأنه يأسرني، وكأنني لا أجد قوة على الخروج من حضرته، كأنما يمسك بين يديه روحي، تباعدت عنه أتقرفص في سريري، وفي موضع الأقدام منه انزويت وأنا أجيبه في نفسي، فلم يكن صوتي بقادر على الخروج من البدن.

تخبرني عن الواقع يا ممدوح!

أليس هو فيض الأحداث في وعي الذات المفردة، تُفتت ميكانيكية الزمن وحدود المكان، إن فرقًا بين ما توجد فيه أجسادنا، وما توجد فيه أبداننا وأرواحنا، كالذي بين النظام واللانظام، هناك حيث الكلمات والأفعال والحواس مطلقة، وحيث الأشياء بغير بدء ولا نهايات محددة، لذلك فإطلاق كلماتنا وأفعالنا وحواسنا لابد وأن يكون دائمًا نحو الكمال، نحو الجمال، نحو النهايات المحددة التي نريدها ونرضى عنها، ذلك هو التحدي الذي لا خلاص منه، وكل الغاية فيه، إلا بالتحدي الأكبر وهو الموت، حيث الموت اكتمال المعرفة، وامتلاك الحقيقة، ونهاية النهايات غير المحددة.

وأحس بِحَرٍّ شديد في جسدي، أنظر فأجدني غارقًا في العرق حتى أذنيّ، كأن الشمس رغم الليل ورغم البرد تقف على رأسي، وكأنني في مشهد عظيم من الخوف والوحدة يُطبق عليّ من كل جانب، فينتفض جسدي مرتجفًا، حتى إذا ما كاد يغرق تمامًا في ارتجافته الخائفة تنقذني عيناكَ وهما تحدقان بي طويلًا، طويلًا بحيث أثبت أمامهما كبليد ومعتذر، وحتى أرى نفسي في عينيكَ وأنت تخبرني بشيء من السحر، أننا أصدقاء في البدء، وفي المنتهى، وفيما بين ذلك، فتخترقني كلماتك اختراقًا جميلًا، ويتسع صدري لهواء بارد ومنعش يوقف ارتجافة الجسد ويُطمئن القلب، فنقوم بشيء من الفرح نجمع أشياءنا المكدسة في دولاب واحد، نخرج من الوحدة إلى السفر، ولا يأخذك مني إلا النوم الذي يجثم

عليك الآن، لأظل وحدي والصحراء والشمس التي لم تزل تتساقط أشعتها تساقطًا خفيفًا خلف نوافذ السيارة.

ويرسل السائق عبر جهاز التسجيل صوت أم كلثوم، يغرد وحده منفردًا بكل الحب، فهل كان السائق يعشق أم كلثوم، أم كان يعلم أنني أهواها؟! أم أن الخطأ يكمن دوما بداخلي، ذلك الرضا الذي يشعرني بالأبدية، تلك الرغبة التي تؤجج داخلي وهي تضل طريقها نحو التحقق، هذا الآخر الموغل في البعيد بلا رسول يهدي إليه.

كل شيء في هذه الصحراء غائر بغير منتهى، مَنْ قال بأنه لا شيء في الصحراء كاذب، روح طائر ضخم تحط عليّ بجناحين كبيرين لا قِبَلَ لي بهما، فأتساقط في مقعدي تساقطًا خفيفًا أيضًا، وهناك في المدى البعيد جدًّا أراه بغير عينين، وأرى أشعة الشمس تتجمع في حِزَم كثيفة وتسقط باندفاع ثقيل، فتتلبد الأشياء من تحتها ويغمرها ماء كثير له طعم الملح، وهي تهوي في بحر عميق لا قرار له، وحِزَم أشعة الشمس يتدافع سقوطها موجًا عاليًا لا ينتهي، وكثيفًا يغطي الأشياء لحد الغرق، وبحيث تغمرها ضبابية شديدة لا تبيِّن من تحتها، وأشعر بنفسي نقطة في هذا المدى البعيد تتحرك بعشوائية الضرير وهي تستصرخ الأشياء ولا أحد يجيبها، وينسرب الماء من بين أصابعها لماء كثيف يعلوه موج عالٍ يزيحها ويغمرها، فتتلاطم فيه ويدخلها.

طعم الملح داخلي كثيف، له حموضة لاذعة تُشعرني بالتقيؤ، فأتقيأ ماء إلى الماء، وملحًا إلى الملح، ويدور رأسي فأدور في

غيبوبة طويلة، لا أحس خلالها بشـيء، حتى يأتي سكون وتمتد إليّ يد حانية كأني أعرفها، تتحسسني، فأنتبه.

هذه يد ممدوح على كتفي

هذه السيارة تقف وسط سيارات كثيرة والناس تنزل منها.

هذه شمس ظهرية تحاول بعث دفئها في الأشياء.

- نحن في أسيوط يا أفندم.

قالها ممدوح مازحًا ويده في وضع التحية العسكرية، ومرت بسمة خفيفة على شـفتيه وهو يخبرنـي بأنني نمت كجائـع، ومحنطًا كجثة فرعونية، أفرك عينيّ وأنظر إليه في ثقل غير مصدق لما يقول.

- أبهذه السرعة؟!

- عبقرية السائق.

- كيف؟!

- لـم يقـف في الاسـتراحة، لكـن الأهم أنه لـم توقفنـا أية نقطة للمرور في الطريق، فكلها الآن فارغة.

- يا عم ممدوح الثورة في القاهرة وليست هنا.

- يـا محمـد البلـد منذ قيـام الثـورة كأنها غيـر البلـد، وهذه هي عبقريتها.

ضحك السائق في وجهي، ولم أعرف إن كانت ضحكته رضا عن رحلة بدت مريحة إلى حد بعيد، أم سخرية مني أنا تحديدًا، ودليلًا على قدرته في استغلالي، دونًا عن ممدوح، ودونًا عن بقية الركاب، فقد كنت الوحيد الذي استطاع أن يأخذ مني أجرة مضاعفة من غير أن يشكل ذلك أي نوع من الدهشة لدى أي منهم.

- وعبقرية السائق أيضًا.

قلتها مازحًا ورحنا نَحُثُّ السير باتجاه محطة السكة الحديد، حيث كان صوت القطار يعلو مخترقًا الآذان وهو ينذر بمغادرة المحطة، تأكد ممدوح من ساعة الموبايل في يده وصاح.

- هذا القطار متجه إلى قنا، لقد ركبته من قبل.

على رصيف المحطة كان القطار يُسرع في جريانه صوب الجنوب، وأقدامنا تسبقه عليه، عيوننا بداخله وأيادينا على جسده الصلب تتحسسه حذرة، ثم تقبض على حديدة الباب العمودية، حيث كان الباب مفتوحًا والناس في الداخل يرقبوننا، ويحفزوننا، ويتلقفوننا بكل الحب إذ نطوح بجسدينا إليهم، وبكل الحب نستوي قاعدين على الكرسي.

في ساحة موقف سيارات أسيوط كان اليأس قد أصابني من طول الانتظار وخيبة الأمل، وحزن قد أصاب الطائر ذا الجناحين الكبيرين وهو يرفُّ بجناحيه سريعًا فوق ساحة الموقف بغير جدوى، وكلما

حاول التحليق يحط على الأرض خائبًا، ألقيت حقيبتي الخضراء، متوسطة الحجم، على الأرض، ورحت أرقب الناس في دورانهم المحموم والمتداخل والمبهم وغير المجدي، كانوا هنا في موقف السيارات كما هم هناك تمامًا في ساحة ميدان التحرير منذ ثمانية عشر يومًا، أنظر ربما بغير اهتمام وربما بغير قدرة على التصديق، وربما بغير أمل في تحقيق الحلم، لكن الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه الآن أنني أنظر باستمتاع كبير لم أعرفه من قبل، فثمة نهاية يجب أن تأتي، وبغض النظر عن كيفية مجيئها، على أية هيئة أو مصير، لكنها من المهم أن تأتي، وأننا نحن مَنْ سيأتي بها.

ها أنت يا محمد تخرج من قريتك

بصدر ضيق وقدر منزوع

تخرج مثقلًا بالحب، بغير دليل ولا صاحب

إلى مدينة تقف الصحراء بينك وبينها

وحتى إذا أتيتها، فلن تُشرق بنور وجهك

لن تُبدل اسمها من أجلك

ولن تكون لك فيها مكانة، ولا قدر، ولا نصيب

لأنك لن تلبث بها إلا قليلًا، ثم تنزوي عند أطرافها

ولن يذكرك من ساكنيها أحد.

3

نحن في فبراير، لكن عين الشمس في كبد السماء متوثبة، تخترق زرقتها الداكنة ووجهها المعقود على البرد في بؤرة واسعة، وترسل أشعتها الحامية أنصالًا تلسع وجه الميدان فيلتهب ويسيل لحمه، تنغرس في أجساد الناس وفوق رءوسهم فتصيبهم بحر شديد يُشَوِّكهم، وعرق غزير يقبض أرواحهم، فيفرون في قفزات سريعة ومتتالية لكنها قادرة على ترك آثارها بارزة في أرض الميدان الملتهب، وهم يحاولون الاحتماء بالظلال القليلة المتناثرة على جوانبه أسفل البنايات المرتفعة، يستكينون إليها قليلًا، ثم يمضون إلى غاياتهم منسلين في الشوارع الخارجة من الميدان، يترصدون بقع الظل العزيزة.

وتجري السيارات مسرعة أيضًا، وزاعقة، وهي تتحاشى وجه الميدان الملتهب، وأنصال الشمس الساقطة بغير هوادة تنعكس فوق أسطحها كبرق خاطف، ثم تتمركز في وسط الميدان، في بقعة مضيئة واسعة، على رجل أشعث وعارٍ تمامًا وله نظرة بلهاء، ولا أحد يلتفت إليه.

اختفت الحركة فاختفت الأصوات وساد سكون، أصبح كل شيء هادئًا تمامًا، ورويدًا استكانت مخلوقات المحيط الدائري، أتعبهم الدوران غير المجدي في رحلة البحث عن السفر حتى أصابهم اليأس، فثبتوا في أماكنهم، حطّوا شنطهم مختلفة الأحجام والألوان على بقع الأرض المظللة بأجساد العربات وحائط الموقف الواطئ، وعلى الرصيف المظلل بأكشاك المقاهي الصغيرة، المظلمة رغم النهار، والمحشوة بسُحب غامقة وكثيفة لدخان السجائر والنارجيلات التي تزاحمت إلى جوار بعضها، جلس بعضهم بداخلها، فيما اتكأ البعض الآخر على مقدمات ومؤخرات سيارات البلاد الأخرى محتميًا بظل جريدة يوميةِ أو ورقة كبيرة مهملة، لكنهم بدوا في جلوسهم المستسلم هذا يملأون ساحة موقف السيارات والرصيف، ويحجبون في اتكائهم كل سيارات البلاد الأخرى وحائط الموقف، ولما أصابهم طول الجلوس بالملل وخيبة الأمل بدأوا يتسللون خلف بعضهم وينتشرون خارج ساحة الموقف، ليكون اختفاؤهم في ميدان المحطة.

كنت أرقبهم محاولًا إبعاد ذهني عن التفكير في أمر الانتظار، فمصيبة تأخري أكبر من مصائبهم ولو اجتمعت، فأنا أكره السجن، وأخافه، وأعلم يقينًا كيف كنت أتحاشى مجرد المرور من أمامه.

نظرت فوقي فكان الطائر ذو الجناحين الكبيرين فوق موقف الأتوبيسات يكف عن محاولات التحليق، يطوي جناحيه ويتقزَّم

داخل الموقف، حتى كاد يختفي خلف جداره الواطئ، ومن فوقه كانت السماء داكنة الزرقة، وصلدة، لها وطأة ثقيلة ووجه معقود على القيظ، تتوسطها عين الشمس في ترقب كأنما خُصِّص للطائر وحده، ينظرها فتنكسر نظرته وترتد إليه خائبة، يمد جناحيه إليها وهو يحاول رفع جسده فيحس بوطأتها الثقيلة، ويقبع مضغوطًا في مكانه.

أصابني اليأس، فأرجعت عينيّ إلى الأرض، ورأيت الشاب النحيل يتكئ على مقدمة سيارة بيضاء ويحمي رأسه بظل جريدة باهتة، بينما جلس بقية الناس فوق شنطهم وهم يعصرون الضيق بأفواههم وأياديهم بلا جدوى، فانحنيت إلى الأرض أعدل وضع شنطتي، وارتميت فوقها وئيدًا، وكان تعبًا ثقيلًا ينسل من بدني إلى حيث لا أراه.

في غرفة بيتنا السفلية ثلاث كنبات مفروشة بقماش أخضر، ومنضدة حديدية، وكرسي خشبي ذو لون بني فاتح، وفراغ كبير، أنا الآن أمام المنضدة أجلس على الكرسي الخشبي وحيدًا، بعدما ذهب إخوتي إلى مدارسهم، وذهبت أمي إلى مكتب بريد المعنى كي تقبض معاشها، ستغيب طويلًا، أراها الآن تقف في طابور طويل لنساء لا حصر لهن، بقايا أزواج انتقلوا منذ أزمنة متباينة، وفي موازاتهن يقف طابور آخر لعجائز رجال الحي أغلبهم بلا نساء، لما

سمعت طرق الباب كنت منهمكًا في قراءة قصة «أنا وهي وزهور العالم» ليحيى الطاهر عبد الله، حيث كان ولد يطمع في علاقة تربطه ببنت، أية علاقة، وكان من حولهما شجر مورق وحشائش خضراء وطير بأجنحة إلى جوار عين ماء عذبة، فتكاسلت عن القيام وعن الرد، كان الولد والبنت وحيدين في الحديقة، وكان شيخ قد أخبرني قديمًا بأن الشيطان لابد وأن يكون ثالثهما، همستُ «هما مجرد ولد وبنت» فزاد الطرق حتى أزعجني، رأيت الباب البراني مواربًا فزعقت على الطارق كي يدخل، اندفع الباب مفتوحًا عن آخره فبدت سعاد من خلفه تقف على عتبة بيتنا بجلباب بيتيٍّ شفيف، يضربه ضوء الشمس من الخارج فيُظهر قميصها التحتي، وأشباه ساقيها المنتصبتين فوق العتبة في عزة وخجل.

لست معتادًا على القراءة في الصباح، ومن قبل لم أكن مؤهلًا لأي شيء فيه، حتى جملة «صباح الخير» كانت تخرج من فمي باردة بغير حياة، قالت أمي صباحاتك مسكونة بأشباح قُتلت أجسادها في صباحات سوداء تنم عن السهر، فلا تُغير عاداتك فيها حتى لا تُقلق الأشباح فتصحو لتُنكِّد عليك أيامك، لكنني خالفت اليوم أيضًا تعاليم أمي، وها هي صباحاتي جميلة، تقف على عتبتها وردة بيضاء مرَّت ستة أيام دون رؤيتها، طويت القصة على المنضدة الخضراء فحلَّقت طيور يحيى الربيعية عند عين الماء، تطلب الماء وتغتسل وتتمرغ في الحشائش فرحانة، نظرت إليها مبتسمًا

فابتسمتْ وألقتْ عينيها داخل البيت، وحين استشعرتْ السكون همستْ «وحدك؟» فلما أومأتُ بالإيجاب دخلتْ وأغلقتْ الباب من خلفها، وحين استوتْ إلى جواري على الكنبة تكسَّر في المسافة الضيقة التي تفصلنا كل الاشتياق والعتاب والقلق الذي جثم على أيامنا الماضية، بدونا وكأن ملك الموت يُعيد إلينا روحنا التي أخذها خطأً في لحظة لم نستطع فيها ضبط إيقاع العلاقة.

كان حديثنا همسًا، وعيوننا متصلة، وجسدانا يتقاربان عن عمد، لكنها خافت من ملاك الموت أن يعود مرة أخرى، ففردتْ ذراعها بيننا، وأبعدت عينيها إلى القصة على المنضدة التي بدا لونها وكأنه يبهت فجأة.

- ما هذا؟

- أنا وأنتِ وزهور العالم.

قرأتْ وئيدة وشاردة.

- بل أنت وهي وزهور العالم.

وتوقفتْ عن الكلام بحيث مرَّت لحظة صمت قلقة، سكنت خلالها الطيور، وذبلت أوراق الشجر، حتى أن عينيها ازدحمتا بالدموع، وكسا حزن شفيف وجهها الأبيض فأطفأه، وتساقطت دمعتان كبيرتان على خديها، أخبرتاني أن أباها مُصِرٌّ على عدم

زواجهـا من خارج العائلـة، وإن أدى ذلك إلى الموت أو عنوسـتها لبقية العمر، وأنه قد وافق على خطبتها لابن عمها بمجرد عودته من بلاد الخليج، ثـم دفنتْ وجهها في كفيها وانفجرت في بكاء طويل، ومتصل.

قلـتُ حدث الذي كنت أخشـاه، وكان مقررًا له أن يحدث ههنا، والولد في الحديقة أصبح وحيدًا، فقد سـقط الورق عن أشـجارها، وعيـن الماء جفَّت وغطاها الورق اليابـس والكلس، أما الطيور فقد تركتها ورحلت بعيدًا.

ابتلعني الكرسـي، وتاهت نظراتي فـي أرجاء الغرفة، بدوت كما لو كنت أرتجف أو أهتز لدرجة لم أسـتطع معها التوقف قبل أن يمر وقت طويل، تبادلنا نظرات صامتة، ثكلى بحديث لم ينته بعد، وقال يحيى:

- أحب الحياة، وكلما أجدني فيها أعرف أنها الموت.

مالت إلى الأرض تأخذ طرف قميصها، فبدت ساقاها الناعمتان مرتجفتين في استنادهما إلى الأرض، ونحن في الغرفة وحيدين كنت أبحـث عن الشـيطان داخلي فلم أجده، وكان حب يجف ويتكسـر، جففـتْ دموعها جيـدًا بقميصها وجـرتْ مندفعة إلى الخـارج، وأنا أتابعهـا بعينين ضعيفتين وقد انغلق الباب الـذي كان مواربًا بيننا من خلفها، ووددتُ لو أمتلك زهرة بيضاء، قال يحيى:

- ثمة زهور بيضاء بالعالم، ثمة زهور بيضاء.

فألقيت بيحيى وزهوره على المنضدة التي بهتت تمامًا، وعدتُ أجلس على الكرسي الخشبي الذي أصبح ناشفًا وغامقًا، وفي غرفة بيتنا السفلية التي تحتويني الآن وحيدًا كانت أشباح أمي تنط وتصوصو.

أتعبني طول الجلوس، وهدَّني الانتظار.

حبات العرق الكثيفة عاودت التكون على جبيني وها هي تسقط كالمطر وتمتزج بالرصيف، وها هو السجن يتجسد أمامي غرفة ضيقة يملأها ظلام مستديم، أربعة جدران عالية وسوداء ومنحوتة برسومات وأسماء كثيرة تركها أصحابها للذكري التي تُشير إلى الخطأ والقهر الممتدين في الزمن، يعلوها سقف واطئ بحيث تطوله الأيدي بسهولة ويُسر، ويقتحمها شعاع ضوء وحيد وفقير، ينفذ من طاقة صغيرة يحدها إطار خشبي مُغطى بشبكة حديدية عيونها ضيقة.

هززتُ رأسي وأزلت العرق عن جبيني، فبدا غزيرًا وغازيًا يتسلل لأجزاء الجسد الداخلية، فأحس بثقل ملابسي وهي تكاد تخنقني، وكان الطائر خلف جدران موقف الأتوبيسات يعاود محاولات تحليقه الفاشلة تحت عين الشمس حتى أصابني الضيق وأحسست بالاختناق، فقررت الخروج من ساحة الموقف والاختفاء في

الميـدان، في هذه اللحظة كانت سـيارة ميكروبـاص صغيرة تدخل الموقـف علـى مهل وثقـة، حتى اسـتقرت في المـكان المخصص للعربات الذاهبة إلـى الوادي الجديد، وفيما انتصبت رءوس الناس جميعًا تحملق فيها بذهول كبير، كان السائق ينزل خفيفًا وينادي بزهو وخيلاء كبيرين على مَنْ يرغب في الذهاب إلى المدينة الخارجة.

باب السيارة الجانبي كان مفتوحًا عن آخره، وكان أربعة أشخاص معممـون يجلسـون في المقعـد الخلفي، وفي المقعـد الأمامي إلى جوار السـائق تقبع سـيدة بفستان أسـود في هدوء وثقة، العقول غير المصدقة اسـتغرقت وقتًا طويلًا قبل تصديق النداء، ثم اندفعوا بغير إرادة إلـى البـاب الجانبي للسـيارة، وتزاحموا لدرجة لم يسـتطيعوا معها الولوج إلى داخل السيارة.

هـل حجـب عني الخـوف من السـجن اسـتيعاب مـا يحدث؟! لا أعـرف علـى وجه التحديد، لكنني واثق مـن أنني لم أكن لأزاحم أحدًا على شيء، وأنني لم أكن لأفعل شيئًا يختلف عما أنا فيه الآن، أن أنظـر إلـى الحدث بهدوء شـديد لأعـرف موقعي منه، ثـم أُحدد طريقـي بعـد ذلك، وبخاطر سـريع اتجهـتُ صوب البـاب الأمامي للسيارة ووقفت إلى جوار السيدة، سألتها بحياء لم يستطع أن يُخفي مـا بي من لهفة عما إذا كان أحد ما سـيجلس إلـى جوارها، فنظرت إلـيّ طويـلًا في صمـت كأنها تفحصنـي، ثم تحولت بنفـس نظرتها الطويلة الفاحصة إلى شنطتي الخضراء متوسطة الحجم، وسألتني:

- أنت جندي، أليس كذلك؟

- بلى.

بـدت وكأنها تطرد مـن داخلها التردد في الرجوع عن قرار كانت قد عقدت العزم عليه، وقالت مبتسمة:

- كنت قد حجزت المقعدين لنفسـي، فأنا لا أحب أن يضايقني أحد، لكن لا بأس.

لم أصدق نفسـي حتى أنني طرتُ فرحًا، وشـكرتها مرات كثيرة حتى كاد الخجل أن يصيبها، وحتى أنني أحسست برغبة حقيقية في تقبيل يدها اعترافًا بجميلها، ولم يكن من اللائق بأي حال أن أسألها عن السـبب، ناولتها شـنطتي الخضـراء وظللت واقفًـا إلى جوارها كأنما أحرس مقدمة السـيارة حتـى تكتمل بالركاب، وحين اكتملت فتحـت البـاب الأمامي لتنـزل السـيدة، فالذوق يُحتـم وجودها إلى جـوار النافذة ووجودي إلى جوار السـائق، لم أكن قـد اعتدلتُ في جلسـتي بعد حين اندفعت السيدة تقفز فوق المقعد، فاستقر ردفاها فوق أصابع يدي اليمني، أحسسـتهما صغيرين لدنين يشـقهما فراغ عظيم ولا نهائي، وأحسسُـت بخجل شديد فكررتُ اعتذاري كثيرًا، حتى جاءني صوتها الهادئ:

- لا بأس، يبدو أنني استعجلت الصعود للسيارة.

الذين عجزوا عن صعود السيارة بدأوا ينسلون إلى الرصيف مرة أخرى، محملين بالخيبة واليأس وقلة الحيلة، وحين انتظم الركاب داخل السيارة ظهر أن ثمة مكانًا لم يزل خاليًا، فصاح أحد الأربعة المعممين عليه، وفي حركة تتسم برشاقة لافتة التفت الشاب النحيل خلفه، راميًا بثقله كله داخل السيارة، وتاركًا من خلفه ذهولًا كبيرًا ارتسم على وجوه الناس حتى ألجمها، فهل هدأت نفسه الآن بعد أن استوى على كرسيه، وأغلق باب السيارة الجانبي من خلفه؟!

- أعرف أن حبي لسعاد يضايقك يا أمي.

- ضيقي من أجلك أنت.

- وماذا أستطيع أن أفعل؟

- لا حيلة، أخبرتك من البداية أنها ليست لك.

- هي القلوب يا أمي، سلطانها علينا وخضوعنا لها، وسعاد تريدني.

- أبوها وعائلتها دونك، لن يُزوجوا بناتهم للغرباء.

- ليس بيننا وبينهم غير هذا الحائط يا أمي، اسأليه هل من غريب على جانبيه؟!

- ليس بالقول يا حبيب عيني، ولا أملك لك غير الدعاء في صلاة الفجر.

- سأكلم أباها.

- لو كان ينفع لوافقتك، هو ابن عمها وعائد بأمواله من الخليج، كأن كل الأشياء معدة لصالحه.

بالأمس كانت سعاد إلى جواري بعيدة بُعد الأفق.

فهل انغلق الباب الذي كان مواربًا بيننا إلى الأبد؟!

والآن أجلس في مواجهة أمي في نفس غرفة بيتنا السفلية، بيننا نفس البُعد، تقول أمي كلامًا أعرفه وتُشوِّك به أذنيَّ، تلك الدموع التي تسحُّ من عينيها وتتقاطر في قلبي، هل تطالبه الإيمان بكلامها؟!

إنه مجرد كلام يا أمي، صحيح أنه ممدد على طول الزمن، لكنه ذبيح ومصلوب ومستباح الدم بيد منْ قضوا على الثورة العظيمة بأياديهم المخضبة بدم الأمير العادل عمر بن الخطاب، لا لشيء إلا ليُعيدوا أمجاد جهلهم القديم، وراحوا يا أمي بعد أن خَلُصَ الأمر لهم يُورِّثون الأهل، ويوالون القبيلة، ويؤسسون ممالكهم الخاصة التي تحمل ألقاب أنسابهم المستعادة، وقد ألبسوها ثوب الثورة، لم تتغير منهم غير ثيابهم القديمة يا أمي، ليبنوا في نهاية الأمر على رُفات الشهداء الأوائل، وفوق الدم المتخثر للثورة الذبيحة، تاريخًا ملكيًّا وقبليًّا لا هَمَّ له سوى النخر كسوس دؤوب في جذع الزمن، وهو يستعيد كل التفاصيل القديمة.

ما أعرفه الآن يقينًا أنني أتكور داخلي، أن الوقت يدخل في الليل،

وأن السـماء جوفاء بغير قمـر ولا نجوم، حتى الطائـر ذو الجناحين الكبيرين فوق موقف الأتوبيسـات وقـد أفلحت محاولات تحليقه، جناحاه يسـتطيلان وجسـده يرتفع عن الأرض حتـى صار طائرًا في الهـواء، وهناك في السـماء البعيدة نظر تحتـه، ورَفَّ بجناحيه كثيرًا، ثم أقلع عن المكان.

4

المسـافات محتـوى الذاكـرة، انطبـاع تاريخ الإنسـانية في عقل الذات المفردة، كل المسافات ممتدة لما قبل المبتدأ وبعد المنتهى، مـن قبـل غرفة ضيقـة ومظلمـة، ليـس فيها من شـيء غيـر التكوين الأوليّ، إلـى غرفة واسـعة ومظلمة أيضًا، وليس فيها من شـيء غير الجهـل فـي مقابل المعرفـة، الفقـر في مقابـل الغنـى، الضعف في مقابل القوة، التسـليم في مقابل التمـرد، والطفولة اللاهية في مقابل الشـيخوخة العقيمة، أطـراف متناقضة ومحاولات فاشـلة للارتقاء إلـى الغرفة المظلمة الأخيـرة، التي ليس فيها من شـيء غير التحلل إلى ذات تكويننا الأولي وامتلاك اليقين، سكون في المبتدأ وسكون فـي المنتهـى، وبينهمـا المسـافات محتـوى الذاكرة، انطبـاع تاريخ الإنسانية في عقل الذات المفردة.

هذا باب موصد بأغلال لا تنكسر، تعبت يدك من محاولة فتحه، وكتفـك من محاولة زحزحته، فهل تبغي ضربه برأسـك؟ إنك حتى إن فعلتهـا فلـن يكـون بمقدورك فتـح الباب ولا كسـر الأغلال، إن غاية ما سـيقع هو الدم، وسواء قَلَّ أو كثر فلن يسيل إلا على جبهتك

العريضة محملًا بتراثك القديم، وساقطًا على عينيك حتى يحجب الرؤية عنهما، ثم يفيض على شاطئيك البعيدين ذائبًا في مائهما المالح، حتى تصطبغ دموعك بلون الدم، وتنفصل السماء عن أرضك، عندها ستدور حول نفسك مثل تائه، وأنت تثب من ظلام إلى ظلام مكلومًا بضياع ملامحك.. وإلى الأبد.

مات أبوك وكنت صغيرًا، ماذا تقدر أن تفعل؟ وأنت المدلل المتمرغ في حنان يديه، النائم في وسع ابتسامته العريضة، التائهة عيناك في ضخامة جسده، وأبوك شيخ مفتون بالمعرفة، فهل إذا ما رمى الواحد بنفسه إليها يخرج سليمًا؟! رغم ضخامة جسده وحصافة عقله وحنانه اللا محدود، كان لابد لانهيار ما أن يقع، زلزلة ما أن ترج الأرض رجًّا، فيُسلم الجسد والعقل رباطيهما، ويقعا فريسة لجدل عقيم، وترتج أنت في اندهاشة عقلك الصغير لتصبح فارغًا وبلا حماية، تريد أن تنجو فلا يسعك، غير قلب أمك.

أمي التي تصلي الفجر وهو حاضر

وتدعو الله لي كثيرًا

برغد العيش، وسهولة الطريق

بفتح الأبواب الموصدة في وجهي

بكل الأشياء الجميلة التي تعرفها

تدعو لي وتدعو

لكن الداعية / أمي

نسيت في دعائها الطويل

الممتد بقدر سنين عمري

البنت الجميلة جدًّا

التي أحبها كثيرًا

والتي ملأتُ بصورها التي رسمتها لها

كل جدران بيتنا الطيني

والصورة الأكثر جمالًا

وضعتها في قلب السلسلة التي تتدلي من عنقي

مائلة نحو القلب

أفمن أجل أمي

لم يُخرج الله محبوبتي من قلب السلسلة

وتركها معلقة في جدران بيتنا الطيني؟!

إنني الآن لا أسمع غير الصياح

أمشي بغير حنان أتمرغ فيه

أشعر بطفولة ويُتم

فهل يعني هذا أنني الآن أكثر استشرافًا للغيب؟

أرى...

الأصـوات صاخبة ومتداخلة، رنين أكواب طويلة بسـائل دموي حلـو المذاق، فرقعـة زجاجات الكولا المثلجـة، زغاريد متباينة في قوتها، أغاني لا تناسـق بينها، وموسـيقى اختلطت ألحانها في دويٍّ مفزع.

الألوان صاخبة أيضًا، مصابيح حمراء وصفراء وخضراء، ومثلها اختلطـت ألوان وجوه النسـاء اللاهيات، وملابسـهن التي لا تنم إلا عن التوحش.

الحركة سريعة في غير انتظام، أيادي تتبادل التحية، وشفاه تتبادل التهنئـة، وأجسـاد تلتـف أذرعها حـول بعضهـا في أحضـان حارة، وفرحة.

وأنا قابع غير بعيد فوق سـطح بيتنا المظلـم، القائم على أطراف الشـارع المتوهج بنوره، الفرحـان بأهله، القاتل لقلبـي، أرقبهم في عبثهم الماجـن ولا أراهم إلا صورة للفرح المتكرر في بلادنا، فرح القبيلـة التـي لا ترى فـي الحياة غيـر دمها وهو يتصاعـد في الأعلى ليعانق السماء، يا الله ألسعاد كل هذا الحزن؟!

سَـحْبَة السـيارة في بدء تحركهـا واهنة، تدفع أجسـادنا للخلف في رفـق، وتصيبنا بخدر لذيذ، يُخبرنا بما لا يدع مجالًا للشـك أنها تركتْ شيئًا ما لتُقدِم على غيره، عبر تلك السَحْبَة الواهنة التي تنتهي بانتهاء الخدر، ولا نحسها بعده.

وفي جـو معبق بقيظ النهـار، ولهيب شمسـه المحرقة، انطلقت السـيارة وسط فرح الركاب وحقد الجالسين على رصيف الموقف، بدت وئيدة في خروجها ومتجهة صوب الشـمال وهي تعبر الميدان المسـتطيل بطـول واجهـة المحطة، لتطأ الشـارع الموازي لشـريط السـكة الحديـد، تاركة خلفها عين شـمس تتوهج في كبد السـماء، وميدانًـا ملتهبًا يسـيل لحمـه، وموقفًا يكتـظ بحقائب السـفر، حتى وصلـت إلى قرية منقباد فانحرفت غربًا لتسـتقيم على طريق الوادي الجديـد بغية الوصول إلى المدينة الخارجة، واسـتقامت معها على شـاطئي الأسـفلت صحـراء طويلـة وممتـدة، تابعتهـا عينـاي حتى أطراف السماء، وإلى جانب السيدة الأيمن عبر النافذة كانت مساحة واسـعة من الفراغ الرملي تجري مسـرعة خلف السيارة، وفي الأفق البعيد كانت قمم من الجبال، صغيرة ومتتالية، ترسـو تحت السـماء في شـموخ مهيب، وكلما أسـرعت السيارة تدور القمم حول نفسها لتكوِّن مركز دائرة، ولتكون السيارة حافة العالم.

الآن ليـس ثمـة فرصـة للعودة، ليس سـوى مدينـة الخارجة عبر خـط أسـود وطويل ومتعـرج وموغل في رمـال الصحـراء الناعمة،

التي تعبره بفعل الريح في طبقات رقيقة، لكنها تقدر على كسر أشعة الشمس الآخذة الآن في الذبول وهي تنعكس عليها، وتسمَّعت أذناي همهمات الركاب وهم يبسملون ويقرأون الفواتح، ويسألون الله أن يوصلهم سالمين، وعندما التفتُّ إليهم وجدتهم يغمضون أعينهم لطلب النوم، هكذا من أول الطريق.

ارتسمت على وجهي بسمة حزينة، وانعكس حزنها على الشاب النحيل وهو يجلس في الكرسي الذي يليني مباشرة، وقد خلع طاقيته عن رأسه وفتح أزرار جلبابه عن صدر ملتهب بالعرق والعصبية والضيق، وراح يُسلم نفسه مثل بقية الركاب لطلب النوم حيث بدا في تنفسه اللاهث متعبًا للغاية.

اعتدلتُ على حين غفلة من السيدة فرأيتها ترمقني بطرف عينيها، ورأيت على وجهها نفس البسمة الحزينة، تبادلنا نظرة صامتة وهي تسحب عينيها للأمام بعيدًا عني، فيما ارتفعتْ يدي اليمنى إلى محاذاة عينيّ في حركة لا إرادية، فرُحتُ أتحسس ملمس ردفيها عليها، وأشعر بأصابعي وهي تغوص في بحر لدن من اللحم الطري، هل كانت تقصدها، أم أنها الصدفة والعجلة؟ وبينما راح السائق يضع في جهاز تسجيل السيارة شريطًا لأمين الدشناوي وهو يتغنى بالمديح، ويتابع انثناءات الطريق في يقظة مفرطة أيضًا، لم يعد في السيارة من صوت سوى صوت محركها الذي يتوارى الآن خلف صوت التسجيل الزاعق.

نحن الآن في الشفق.

قرص الشمس فوق سن الجبل برتقالي اللون ودامع وضعيف.

أستطيع الآن أن أضع عينيّ في عين الشمس فلا تنكسران.

أخرجت علبة سجائري وقدمت واحدة إلى السائق، فرفضها دون ود أو التفاتة، ولأنني لا أحب الجلوس إلى جوار رجل يسمع أمين الدشناوي ولا يدخن، فقد أشعلت سيجارتي وحيدًا، وجعلت أنفث دخانها في وجه الطريق التي تنشق أمامي، ومع انتشار رائحة التبغ في السيارة كسر الركاب صمت النوم، وبدأوا يشعلون سجائرهم في نهم.

سأنام بعد أن أنتهي من السيجارة

ليس لأحد دخل بي، وليست بي حاجة لهم

سأغمض عينيّ وأدخل خلوتي لأسافر وحدي

لكن السيارة تدور دورانها العميق جهة اليسار، فتميل كل الأجساد للجهة المقابلة، ها هو السائق دون إرادة منه يصنع شيئًا جميلًا، ففخذي الآن في فخذ السيدة، وكوعي في جنبها، وكتفي يرتاح على واحة الصدر الواسع الطري، الإحساس بنعومة الأشياء الناعمة جميل ومكتمل، لم تقطعه إلا التأوهات الفزعة، الطويلة والمكتومة بدخان السجائر، وهي تخرج من أفواه الركاب مصحوبة

بجملة «استرها يا رب» فيسترها الرب لتعتدل الطريق، وتعتدل معها السيارة فتستقيم أجساد الركاب وتهدأ نفوسهم، أنظر إلى السيدة معتذرًا ومحتارًا فلم يكن بيدي عمل شيء، فتُقدم لي وجهًا مبتسمًا به أثر الشمس اللينة في الشفق، ولسانًا جميلًا وهو يردد:

- ولا يهمك.

يا لنظرة عينيها يا الله!!

هل كانت تقصدها، أم أنها الصدفة والعجلة؟

انكسر قرص الشمس تمامًا، فسقط مفتتًا خلف هذا الجبل العالي، اختفى اللون الأحمر الداكن الذي كان يُظلل السماء في الأفق، فبدأ الظلام يطل برأسه على الصحراء من حولنا، يكسو الأشياء بثوبه الأسود فيخفيها داخله، وجرت السيارة تنهب الطريق نهبًا، والطريق تمتد لتوغل في الصحراء المظلمة كأنما تُصر على أن تشطرها، لترسو على شاطئي نصفيها في هيبة وجلال، وتتناثر فوقها أمواج الرمال في حنو وهي تعبرها هادئة بفعل الريح، أو تقبع على جانبيها لتشكل طبقة شفافة بدت في ضوء السيارة الأمامي كطبقة وسطى بين الأسفلت الأسود وشاطئ الرمال الصفراء، وأخذ الهواء مع اختراق السيارة له يتفتت ويندفع داخلها بقوة، وكان بعد انكسار حدة الشمس يبدو رطبًا بعض الشيء، فارتاح الركاب لطبيعته الجديدة، وأخذوا أوضاعًا أكثر راحة في مقاعدهم حتى بدأ

صوت شـخيرهم يأتيني واضحًا فـي المقعد الأمامي، وحيث كانت الطريق خالية أسرعت السيارة مع الريح لتتجاوز الرقم ثمانين الذي كان يستلقي عليه مؤشرها، فبدت كأنما تخوض في الهواء بانسيابية طائرة.

الآن بطـش الليل وسـيطر الظـلام تمامًا، ولـم نعد نـرى غير عدة أمتار قليلة من الأسـفلت تجري أسـفل السـيارة، كان ضوء السيارة الأمامـي يكشـفها مـع جـزء ضئيل مـن الصحـراء على قدر اتسـاع الضوء على جانبيّ الأسـفلت، أطفأ السـائق ضوء السـيارة الداخلي كيـلا تنعكـس صـورة الـركاب في زجاجـه الأمامـي فتعـوق رؤيته الخارجيـة، لكن ثمة رؤية خفيفة ظلت باقية أحدثها انعكاس الضوء الأمامـي، وضـوء أزرار السـيارة أمـام السـائق، وتُعَـوِّد عيوننا على الظلام.

سـحبت السـيدة زجاج النافذة لأسفل وأسـلمت وجهها للهواء الرطب، فانزاحت الطرحة عن رأسها واستقرت على الكتفين، ومن خلفي كانت نوافذ السـيارة كلها مفتوحة عن آخرها، وثياب الركاب تتطايـر في غير انتظام، أثارت التفاتتي انتباه الشـاب النحيل والرجل الجالـس إلى جـواره، كانـا محملقين في سـقف السـيارة فاعتدلا، ابتسـمت فـي وجهيهما ورحت أبحـث بداخلي عن طـرف حديث أمـده إليهمـا، أخرجـت علبـة سـجائري و قدمتها نحوهمـا فاعتذر الشـاب النحيل فـي إصرار، بينما أخـذ الرجل الجالـس إلى جواره

السيجارة بعد إلحاح بسيط، أشعل عود ثقاب وقدمه إليّ ثم أشعل سيجارته، وكان الشاب النحيل يتابعه باهتمام شديد وهو يطفئه، أحسست بأن شيئًا ما يعتمل بداخله، صحيح أنني لم أستطع كشف ماهيته لكنني أحسست بعدم ارتياح أيضًا، وفيما كنت أعتدل في جلستي كانت السيدة لم تزل تُسلم وجهها للهواء البارد، فابتعدت بجسدها قليلًا، تركتهم جميعًا ورحت أمتص دخان سيجارتي في تلذذ، وأنا أحملق في ضوء السيارة الأمامي وأمتار الأسفلت القليلة التي تجري مسرعة تحت السيارة، غير أنني لم أستطع إبعاد عينيّ عن جسد السيدة الذي ارتفع قليلًا عن المقعد وهي تقبض على زجاج النافذة بيديها، وبدا واضحًا أن ظهرها المشدود باستقامته المتحدية في وجهي، والساحب ردفها باستدارته الكاملة، اللدنة، يُجسد أمام عينيّ ذلك السؤال الخبيث الذي بدأ يتردد داخلي بقوة، ولا أجد له إجابة محددة، هل كانت تقصدها، أم أنها الصدفة والعجلة؟

فكرة إبليسية راودتني فقربت جسدي إليها، وجعلت أنفث دخان سيجارتي نحوها، ورغم قوة الهواء الداخل من النافذة إلا أنها تنبهت، ولما أصابت رأسها التفاتة خفيفة ناحيتي أدركتْ تمامًا بقُرب أنفاسي، فاستكانتْ لجلستها لتلتصق بفخذي تمامًا حتى كادت تعتليه، تلاقت نظرتنا هذه المرة في تحدٍّ خفي، ممزوج بالحذر والترقب والصمت الذي يقول كل شيء، ويعرف كل الأشياء التي لا يجب أن تقال، مصمصة شفاه الرجل من خلفي وكحته المتقطعة المعلنة عن تنبهه أرجعت عينيّ وفخذي، لكنني تأكدت أنني لست

بحاجة إلى تقديم الاعتذار هذه المرة، لست بحاجة إلا إلى رد بسمتها الفرحانة، وأن أهمس «أنا محمد» وأن أسمع صوتها وهي تردد «وأنا أمل» ثم رأيتها تتردد وهي تُكمل همسها «أو أم صابر» ثم تغمض عينيها وتواريهما بعيدًا كأنما لتضعني في اختبار ما.

ساد صمت وسيطر سكون، وشيا وظلام الليل عن حذر وترقب، أصبحت السيدة بجانبي لكنها بعيدة بُعد الأفق المتواري خلف كتل الظلام الداكنة في ثقل الليل، حتى شعرت أنني أقبع خارجها، وخارج السيارة التي تقلني، وخارج الصحراء التي تحوطني من كل جانب، وأنني لا أنتمي لشيء على الإطلاق.

لماذا لا تترك الناس وشأنهم؟

نم، أو احلم.

ومرت لحظة صمت طويلة، لكنه لم يكن صمتًا ساكنًا، فقد كان يتأجج داخلي بانفعالات شديدة، وكنت أحسها بداخلها أيضًا، أمل وترقب وتلامس للأكتاف والأفخاذ مع كل اهتزازة واهنة، دخلتها لحظة صمت أخرى، كان خلالها انتهاء ما نما داخلي بصورة حقيقية ومؤكدة، فها هي تلتصق بي في مكان ما مظلم، وفحيح أنفاسها اللاهث يلدغ عنقي، أنا الآن أحتويها تمامًا وأضغط بذراعيّ وفخذيّ، أغوص في رحلة مؤلمة في بحر لدن ومظلم ولا نهائي، لأمواجه الهائجة على جسدي انقباضات سريعة ومتلاحقة، تبتلعني وتقذف زبدها عليّ وأنا أضرب بكلتا يديّ وأغرق، ولا ينقذني غير

أصابعهـا الرقيقـة الناعمة وهي تسـتند علـى ركبتي وتمد إلـيّ لفافة الطعام، مؤكدة على فعل مشـاركتي لها، وكان وجهها طيبًا وسـعيدًا ومشعًّا إلى أقصى مدى، وكأنها كانت تشاركني اللحظة.

وأخشى على نفسي اختلاف ميولها

اللـه يعلـم أنني لا أخونه دائمًـا، ويعلم أيضًا أنـي أفعلها أحيانًا، حين كانت تتبدى البنت السوداء لتظهر في نافذتها المقابلة لنافذتي، تجبرنـي تحـت وطأة الكبت أن أرى عريها الدميـم، وهي تتجرد لي وتكشـف عن جسـد صلد رفيـع، وثديين نافرين شـديدي السـواد، فيلتهـب جسـدي وترتفـع درجـة حرارته، بحيـث أبدو نافـرًا تحت جلبابـي الأبيض الشـفيف، أنظر الجسـد الأسـود متوثبًـا، وتعذبني البنـت السـوداء حيـن تأبي خلـع لباسـها الفاتح، فيظل في وسـطها يقسـم الجسـد إلى جزءيـن كئيبين وحارقين، وتسـري في جسـدي حمى عنيفة، أحسـها وهي تسري في فراشـي حين أنام عليه مهزومًا ومكـدودًا، أحضـن البنـت الجميلة الحمـراء التي تظهر في شاشـة التليفزيـون، ولـم أكن قد رأيتها قط خارج إطار شاشـته، أضمها إليّ وأفتـت ضلوعهـا مـن الغيظ، حتـى يبتل فراشـي ويتمزق من شـدة الدوس، ساعتها فقط أشعر بوجع شديد في جسمي كله، وأنام.

الله يعلم أنني لا أخونه دائمًا، ويعلم أيضًا أنني أريد الآن مع هذه السيدة التي تقبع إلى جواري، ولا أدري لماذا أشعر أنها سوف تيسر لي ذلك.

5

أيها الولد المُعذَّب، تستطيع أن تطمئن الآن بطنك، أن تضرب عليه خفيفًا، تتحسس جانبيه بكفيك الصغيرتين، فهذه امرأة لها أن تخدش جدار حزنك المنتصب، تُهدهده كطفل تقيأ كل حصته من لبن الرضاعة، ثم تضغط عنقه ولا تكون قاسية، في الحلم ترسو البنات الجميلات بأثدائهن وأفخاذهن وأشواكهن المدببة، أساطير وأشباح تأكل روحك المنهوكة مثل بيادة، وتلحس ما تبقى من عطرك المعصور.

وأنا ألوك الكبدة واللحم المشوي بلذة مغرية، وأحاسيس مختلطة، وفرحة صاحبتني منذ كنت صغيرًا حين كانت أمي تمد لي طبق اللحمة كله وتضعه بين يديّ.

- خذ وزِّع علينا، فأنت رجل البيت.

الطبلية في سقيفة المنزل في هدأة الليل رائع منظرها، إخوتي يضحكون من حولها، وأبي جاثم وسطنا بكل عنفوان الرجولة التي تتسع لها مخيلة طفل يقف على أبواب مراهقته الأولى، فألم أكمام جلبابي إلى آخرهما وأبدأ في توزيع الأنصبة عليهم تاركًا لنفسي

النصيب الأكبر من دونهم، فيضحك أبي ساخرًا ومُعلمًا إياي في صمت، وأنا أزعق بكل الخجل:

- ألست رجل البيت؟!

فيقومون ضاحكين، ينام إخوتي بينما يأكل أبي كل الفاكهة حين يُغلق على أمي باب غرفتهما الداخلية، فأدرك صِغر نصيبي، في لحظات غضب نادرة وعميقة كهذه تمنيت كثيرًا لو أن اسمي ممدوح، كي لا ترتعش أطرافي وتتشنج، ويلفني ضيق عظيم لم أعرف طوال فترة صباي ومراهقتي طريقة للتخلص منه، إلا عندما أصعد إلى سطح البيت وأُلقي بنفسي في فضاء الكون، ليلفني الظلام والسكون.

الآن فرغنا من الطعام فأشعلت سيجارتي، وملت جهة النافذة ألقي بعود الثقاب، فتقارب وجهانا تمامًا والتحمت نظراتنا، بحيث شعرت بفحيح أنفاسها الساخنة كما لو أنها شاركتني لحظتي المظلمة، وبدا كما لو أن لرائحة دخان سيجارتي عبقًا يُغمض عينيها ويُطيل أمد تنفسها، باسمة لحظة الصمت التي مرَّت حتى أنني لم أكن أريدها أن تنتهي، غير أنني دائمًا ما أجد للناس في نفسي خشية تُبدد سعادتي عندما أقف عند حدودها التي تطول كل شيء، هربًا من عقولهم الجامدة.

أسندتْ أمل ظهرها للمقعد ودفعت رأسها للوراء، وفي المساحة الخالية تحتها مدَّت ساقيها حتى ظننتُ أنها ستنام، لا بأس فالطريق

لم تزل طويلة، ودائمًا سيكون هناك متسع من الوقت ما دمتُ أشعر الآن أنني أقبع داخلها، وداخل السيارة التي تقلُّني، والصحراء التي تحوطني من كل جانب، وأنني أنتمي لكل شيء من حولي، وأكاد أمتلكه.

وعدت أحملق في ضوء السيارة الأمامي طلبًا للسكون، أمتار الأسفلت المضيئة التي تجري تحت السيارة بدت فرحة ومرتفعة عن الأرض، ومن خلفي كان الشاب النحيل يحملق في سقف السيارة كأنما يطلب النوم ولا يأتيه، حركة يديه المتتالية صعودًا وهبوطًا فوق رأسه، وأصابعه التي تغوص في ثنايا شعره، ترتبه وتنزل هابطة إلى وجهه لتمسحه في عصبية، عبَّرتا عن قلق واضح، لكنه ظل بلا أسباب ظاهرة، فما الذي يدعوه إلى كل هذا القلق كمن يُقدِم على مهمة غير مأمونة العواقب؟ في بداية السفر كان الأمر مبررًا، مثلنا جميعًا، في سبيل الحصول على وسيلة مواصلات، أما الآن ونحن نقطع الطريق قطعًا باتجاه مدينتنا الخارجة ووادينا الجديد، فماذا يمكن أن يقلقنا؟! ومع ذلك ستظل هناك دائمًا لكل منا ضالته التي يجري من خلفها، أما الرجل إلى جواره فقد كان يغوص في بحر النوم العميق كلما زاد ارتفاع صوت شخيره الممطوط، وكذلك بقية الركاب كانوا.

ليس غير النوم هاهنا معين على عنت السفر، هكذا لم يعد أحد مستيقظًا بالسيارة إلا أنا والسائق، ولم يعد أمامي من مفر إلا أن أظل

منتبهًا إلى جواره ما دامت أن أرواحنا جميعًا معلقة بين يديه، وعلى يقظته.

وحدي، وبغير ادِّعاء لأي بطولة، مطالب بهزيمة النوم الذي استسلم له الجميع..

سيطر الظلام تمامًا، حتى أنني لم أعد أرى غير أشباح، ولا أشعر بغير رأسها الذي ينزلق وئيدًا على كتفي حتى كاد أن يستقر عليها، فتنتابها يقظة مفاجئة، تنتبه وتبتعد قليلًا، لكنها سرعان ما تعاود الانزلاق مرة أخرى، بحيث تستقر تمامًا على كتفي، وهي تدعو بقية الجسد للاقتراب، استسلمتُ لضربات البُعد والقُرب، وانتابني الحذر مرة أخرى رغم أن السائق لم يكن يرى شيئًا غير الطريق التي تَقْدُم نحوه مسرعة الخطى، ومع استسلامي لطراوة جسدها التي تنبض في جسدي مع كل اهتزازة للسيارة زال الحذر بعض الشيء، وقد غرقت السيارة في سكون مهيب لم يزل يقطعه صوت محركها الواهن المتواري من وراء صوت أمين الدشناوي في جهاز التسجيل، وصوت تنفسي الممتزج الآن بضربات قلبي المرتفعة، انتظرتُ قليلًا لأتأكد من السكون، وحين تأكدتُ اقتربتُ منها حتى استقر جسدها كله في جسدي، ومر سكون.

يا لنظرة عينيها يا الله، لقد كانت تقصدها.

وها هي تدخل في الفعل بصوت تنفسها المضطرب في امتزاجه بدقات قلبها المرتفعة، جسدها يعلو ويهبط منسابًا مع انسيابية

السيارة وجريها الجميل على الأرض المستوية، فيسري خدر لذيذ في بدني لا يقتلعني منه إلا اهتزازة السيارة المباغتة، والتي تلتها اهتزازات عنيفة ومدوية أيقظت السكون المسيطر كله، ورجت المقاعد المُسلمة زمام أمرها لأجساد النائمين، فاستيقظوا هلعين دفعة واحدة، ومن أمامهم سبحت تساؤلات مبهمة وحائرة وغير موجهة لأحد بعينه، ما الذي أقلق مضجعهم؟! أي شيء عظيم ذلك الذي يهز كياناتهم الراسخة؟! وجرفهم فيض التساؤلات فساد بينهم اللغط، تدافعت كلماتهم فزعة ومُرَوَّعة ومستفهمة عما أصاب أجساد ألسنتها، وجعلها تقفز من فوق مراقدها الهادئة، وتفشت في السيارة أمواج من الرعب والخوف على الحياة التي يمكن أن تضيع بلا فهم أو مبرر، حتى لو كانوا سيعيشونها هكذا في نوم عميق فقط.

صوت محرك السيارة العالي الآن بعد انطفاء صوت أمين الدشناوي، أتانا متقطعًا مع اصطدام عجلات السيارة بأجساد صلبة راحت توقفها، فيتشنج المحرك ويزداد صخبه حتى ترتفع العجلات فوق الأجساد الصلبة، فترتفع معها السيارة لتهوي من خلفها كأنما في بحر من تراب الأرض، ترتج له السيارة في عنف ويتكوم الركاب فوق بعضهم فوق ضجيج أصواتهم المعجونة بانفعالات زادت شدتها، ولم تهدأ قبل أن يمر وقت طويل حين أضاء السائق نور السيارة الداخلي، فبدا الركاب وكأنهم يتعرفون على أنفسهم من جديد، وقد تشابكت أياديهم وأجسادهم في تلاحم تام وهم

يستندون إلى بعضهم، وبدا السائق واضحًا وهو يتشبث بمقود السيارة، ويحاول جاهدًا أن يدوس فرملتها ليتحكم فيها.

هل لم يسعفه الضوء الأمامي، فلم يرَ ما هو مقدم عليه؟

أم أخذته لحظة من نوم أثناء انشغالي بنبضات جسد أمل؟

هو الآن يسيطر عليها تمامًا، ويرتفع صوته زاعقًا في ذعر واضح وهو يخبرنا بأنها مسافة متكسرة من الأسفلت يُعاد رصفها من جديد، وما كاد ينتهي من كلامه حتى تدافع كل الركاب للمقعد الأمامي يحدقون في الأمتار القليلة المضيئة من أمام السيارة ليشاهدوا بأنفسهم، وشاهدوا أيضًا على جانب الطريق الأيمن، عبر مسافة غير قصيرة داخل الصحراء، أنوارًا اختلفت قوة إضاءتها، لكنها كشفت عن معدات ثقيلة من عربات وبلدوزرات وضح تمامًا أنها موجودة لإعادة رصف الطريق.

تيقنا من الأمر فتراجع الركاب إلى أماكنهم، تسبقهم تنهدات طويلة بقدر ما حُبست من قبل، ومصحوبة بجملة «الحمد لله، سلامات» ، وكذا حمدت الله أن أحدًا لم ينتبه لالتصاقي بأمل في نومها، رغم أنني أظنها قد سحبت نفسها بعيدًا بمجرد انفجار يقظتهم المباغتة، ولم يكن السائق قد أنار الضوء الداخلي بعد.

الآن هدأ الأمر وتنفست باطمئنان يشبه إلى حد كبير نظرة التفاهم الماكرة التي تبادلناها، وعادت أمل تنظر الطريق أمامها وهي تتشبث

بمقعدها، فقد كانت الطريق غير المستوية لم تزل ترج السيارة رجًا لم يكن ليسكن معه جسدها، وكذلك بدا بقية الركاب، وكان الشاب النحيل أكثرهم تشبثًا وضيقًا وهو يقبض على شنطته الصفراء الصغيرة بخوف وحرص شديدين، حتى أنه وضعها فوق فخذيه.

استسلمتُ لاهتزازات السيارة، وكان استسلامي لا يخلو من فرح يتسرب إليّ من اصطدام جسدي بجسد أمل، التي لم تزل تُلقي في وجهي بابتسامات صامتة رغم قلق الركاب، حتى واتتني الجرأة في ترك حافة مقعدي التي أتشبث بها، وأن أقبض على كفها تمامًا فوق حافتها.

وبدا واضحًا أن المسافة التي يُعاد رصفها من الطريق طويلة جدًا لدرجة امتعض لها الركاب، لكن لم يكن باستطاعتهم عمل شيء من شأنه إيقاف القلق النازف، فسكتوا وزفروا هواء كثيرًا ومتلاحقًا ومندفعًا من الأعماق الضجرة، صحيح أنه ملأ فراغ السيارة كله لكنه لم يكن موجهًا لأحد بعينه، فلم يكن باستطاعتهم إلقاء اللوم على السائق، الذي يبدو الآن أشد منهم قلقًا وخوفًا على سيارته التي أنهكتها الطريق، وخضخضت كل مسمار وقطعة حديد فيها، حتى كاد أن يلعن اللحظة التي قرر فيها السفر.

لتأففات الركاب قوة ريح صرصر عاتية، جوانب السيارة الحديدية الأربعة، وزجاج نوافذها المغلق، تكاد تنخلع لها، وضيق جامح ينضح من وجوههم المتقلصة وصدورهم التي خافت

وانقبضت وأرسلت سعالها المتوالي، الموجوع من أثر الغبار الذي راح رغم إغلاق النوافذ يدخل بطن السيارة بقوة مع تحركها على الأرض الترابية.

ومثل صدورهم يضيق الآن صدري، فليست بي قوة على تحمل هذا الغبار الكثيف، الذي بدأ يستولي على مساحات الفراغ داخل السيارة مثل عنكبوت يمد خيوطه في سهولة ويُسر، ولا يدع لي فرصة للاحتماء بأي شيء من شأنه أن يمثل لي طوق نجاة، أو ملجأ آوي إليه من سيل الكحات العنيفة التي بدأت تنتابني، لا الجدران المغلقة من حولي، ولا السقف الموصد من فوقي، ولا حتى الظلام الذي أحسه الآن ينسحب من أطراف الصحراء كلها ويتجمع داخلي، ليس سوى صوت يأتيني من فراغ الكون اللانهائي، يهتف:

- لن ينجيك غيري.

صوت يأتي جليًّا عبر الظلمة الحالكة، ومن خلف النوافذ المغلقة، متحديًا ونافذًا ومصرًّا على الوصول إلى أذنيّ وحدي، أُطل فأرى في الظلام شبحًا للطائر الضخم وهو يفرد جناحيه إلى حد الأفق على الجانبين، وفي السماء البعيدة من أمامي كان قمر ما يبدو ظاهرًا لي وحدي، وكان بداخله على كامل استدارته النورانية وجه يرنو إليّ مبتسمًا بحنان شديد.

أفرك عينيّ وأحملق في ظلام الكون، المدى ضيق، والفراغ كخرم إبرة صغيرة، الليل طويل وحالك، والنجوم التي تُحدد

الاتجاهات وتهدي لغايات السفر والمسافات البعيدة لا تبدو الآن في أرضنا القاحلة، والقمر دارة منيرة أعجبها بياض وجهها المشع ونعومة ملمسها التي تنشع في النفس طمأنينة وخوفًا، تسربلت بأساطيرها القديمة، ونقوشها التي تُشكل جزءًا أصيلًا في جدار الذاكرة، وليس لها حجر كحجر رشيد يهدينا إلى فك طلاسمها المستغلقة، فاتخذت لنفسها مكانًا علويًّا بحيث لا نراها إلا بعيدة.

هل ستأتي من خلفي يا ممدوح؟

مَنْ يُنْبِئني بأخبار الثورة التي تتلبس روحك في ميدان تحررنا؟

ما بال الأرض والسماء اتحدتا بلون واحد؟

هذه الشمس أذكرها، ما أبعد نهار الأمس.

الآن تساوت الأشياء، وكل الأشياء تُشقيني، حتى تلك الأضواء الواهنة التي تبدو لي في الأفق البعيد، وتكبر ظاهرة مع اقتراب السيارة نحوها، تزرع الشك في نفسي، أتكون استراحة الكيلو 112؟

أفرك عينيّ جيدًا لأتأكد، وحين تأكدتُ صحتُ فرحًا:

- إنها استراحة الكيلو 112 يا جماعة.

مضى وقت طويل قبل أن يصدقوا رؤية عيونهم لتلك الأضواء المصفر لونها، والباهتة من أثر البُعد، وهي تبدو مثل نقط روحية

مضيئـة في لوحة لزمن مفقود، يسـيطر عليه ليل أسـود ومخنوق في جدران حديدية لسـيارة اضطرب سيرها فجأة، أو عن عمد، لكنهما بلا سبب ظاهر يمكننا من إلقاء اللوم على أحد بعينه، أو يدل عيوننا على أي شـيء يمكن لنا أن نسـميه حقيقة، كمـا تدلنا هذه الأضواء، رغـم بُعدها، على قُرب الاسـتراحة، وبروزها كملجأ وحيد وأوحد لأزمة اختناقنا في بحر من هواء ملوث بالتراب والظلام والخوف.

اسـتوعبوا النبـأ، وأكدوا جميعًـا أنها هي بعينهـا، وخرجت بغير إرادة منهم تنهدات عميقة وشـت عن ارتياح قـادم، عادوا لأماكنهم في هدوء وفرح، وفرشـت ابتسامات متباينة ظلالها على وجوههم، فبدت مستبشرة بانفراج قريب، وزوال للهزات التي رجَّتهم وأقلقت أماكنهم المسـتكينة، واختفـاء لذرات الغبار التـي ملأت صدورهم فجعلتهـا ضيقة حرجـة كأنما تصعد فـي فراغ ظـلام الصحراء، وما عاد أحد يتشـبث بشيء إلى جواره، لا المقاعد ولا النوافذ ولا حتى أجسـاد بعضهم، فقد خفَّت حِدَّة الاهتزازات مع بدء انتهاء المسـافة غيـر المرصوفة، وسـيطرة الأسـفلت على اسـتقامة الطريق، وبدت السـيارة مع انتظام سيرها وكأنها تسـتعيد قدرتها على شق الصحراء مـرة أخرى، ثم هـدأت رويدًا رويـدًا حيث بدت الاسـتراحة قريبة، قريبة جدًّا.

6

إلـى جوار مبنى الاسـتراحة يقف مبنى صغيـر أيضًا، من غرفتين ومرحـاض ظهر بابـه المغلق إثر وقوفـه منتصبًا خلف نافـذة الغرفة المطلـة علـى الطريق السـريع، وكُتـب عليه بخط عريـض ومتعرج بقـدر اهتـزاز أصابع مَنْ كتبه «دورة مياه الباشـا» ، هذا الباب موصد الآن منـذ الانفلات الأمني الذي أعقب قيام الثورة قبل ثمانية عشـر يومًـا، وكذلك بدت المتاريس الحديدية، التي كانت الشـرطة تسـد بهـا الطريق بغرض التفتيش، ملقاة على جانب الطريق في عشـوائية متعمدة.

مـن أجـل ذلك مرقـت السـيارة ببطء وثقـة على جانـب الطريق الأيمن لتسـتكين في مواجهة باب الاسـتراحة، فتقاطـر الركاب من بابها الجانبي في إعياء شـديد، ووقفوا ينظـرون الطريق التي لا تبين مـن خلفهـم وكأنهم قادمون مـن الجحيـم، كل ما مر مسـربل الآن فـي ليل فارغ وأجوف، تسـكنه ظلمة من فوقهـا ظلمة، لكنها جميعًا تنزاح الآن من فوق رءوسـهم لتهوي تحت أرجل راحة مؤقتة تلوح بها اسـتراحة تقبع في منتصف طريق بغيـر منتهى، وانزاحوا يجرّون

أقدامهم المتعبة من طول الجلوس، وأجسادهم المنهكة من عنت الطريق، ودونما أدنى التفاتة لأصحاب الاستراحة الذين كانوا يتابعون أخبار «ميدان التحرير» في التليفزيون اتجهوا جميعًا ناحية المرحاض، يسبقهم الشاب النحيل بشنطته الصفراء الصغيرة، بهمة استغربوا جميعًا لها.

نزلنا أنا وأمل، وتركتني مسرعة حين كان السائق يغوص بسيارته من فوق الأسفلت ليركنها فوق الأرض الرملية الصلبة التي تمت تسويتها إلى جوار الاستراحة، ولمحتها تتجه نحو المرحاض الذي تزاحم في وجهه كل أفراد السيارة، وقفتُ لبرهة أتطلع الفراغ اللانهائي أمامي، والمصطدم عند حد الأفق بسن الجبل الذي يدور حول مساحة واسعة من الصحراء، في تعرجات مختلفة قُربًا وبُعدًا، علوًّا وهبوطًا، وقد وقف من خلفه قريبًا من السماء قمر يشع بنوره مثل شبح يستعيد أساطير زمن قديم وبائد.

ما أضيق حدود السيارة رغم وهم سرعتها.

ولماذا رغم انفراج السماء عن القمر أحس الظلام مسيطرًا من حولي؟!

أهو الانتقال في الحال، أم التغير في حدود المكان؟

فسحة الفراغ من حولي ورطوبة الليل أرسلا نسمة الهواء الباردة التي تُطيِّر الآن قميصي وتدخلني، فينتعش بدني ويتبدل حالي، الآن

أنظر باتجاه السـماء وأمد عينيّ، إنه القمر، وتلك دارته المنيرة، ولي حين أنظر إليه، ومنذ كنت صغيرًا، أن أرى ذلك الوجه الذي ينظرني من داخله ويبتسـم، لم يكـن مكتملًا قط، مجـرد عينين وأنف وفم، أو لعلهـم مثـل ذلك، لكنها نفس النظرة الحانية المكسـوة بابتسـامة وجهـه العريضة والأكثر حنوًّا، ضوؤه المشـع دومًا يكسـو الأشـياء لونًـا من لجين امتزج بالبلُّور والفوسـفور وكل مـا هو مضيء وبهي ويعجـز الوصـف عنه، فبـدت منيرة، ليـس النور الـذي نعرفه لكنها منيرة، وواضحة، ليـس الوضوح الذي نتبينه لكنها واضحة، وكانت سـعاد قد تسللت من خلفي إلى السـطح، تاركين عُرس أخيها وابنة عمه، والرجال ذوي الشوارب العريضة والممطوطة على أجسادهم الفارهـة، والمرصوصيـن علـى دكك مرصوصـة بطـول الشـارع المسـدود في أوله ومنتهاه، جلسنا متجاورين كسطحيّ البيتين وهي تخبرني أنها ترى في القمر وجهًا ينظر إليها ويبتسـم، همستُ: «وأنا أيضًـا» ، وعلـى قدر فرحها بمشـاركتي لها فـي ذات الرؤية، إلا أنها تـوارت بوجههـا بعيدًا عنـي، ربما لكي لا أرى دموعهـا وهي تردد: «يضحك لنا أم علينا» ، أذكر أنني أخذتها في صدري حتى مسـحتُ كل ما بدا عليها من حزن ودموع، ودفنتُ وجهي في عنقها وأنا أقول إن الزمـن كفيل بإصلاح الأمور، وإنني مسـافر في الصباح ولا أبغي لدموعها أن تكون آخر ما أراه.

- اقترب موعد فرحي ولا أعرف ماذا أفعل؟!

سبعة عشـر يومًا من الثورة وما زال النظام التليد يتشبث بوجوده ولا يريد أن يتزحزح، فهدهدتها وأبقيتها في صدري طويلًا.

وكأنه الاختباء.

فهل أبتغيه لها، أم لي؟!

ورحنـا نتمايـل في صمـت، وكان الناس في الشـارع أسـفل منا لاهيـن فـي عالـم تمـلأه الأضـواء الزاهيـة، والألـوان المختلطـة، والأصـوات الصاخبـة، ولا يـدرون شـيئًا عمـا يحـدث فـي العالم الفسيح من فوقهم، ولم نكن نعرف أهو الحائط الطيني الرفيع الذي يعلو السـطح من جهة الشـارع مـا يحجبنا عنهم، أم أنـه القمر يُظللنا بنوره، ويغطينا بابتسـامته، ولأول مرة تهب سعاد نفسها لي طواعية، دون إلحاح مني أو تمنُّع منها، كانت تبتسـم وهي تتجرد لي، وكنت هادئًـا جدًّا وأنا أتجرد لهـا، وعند التقاء الجسـدين النورانيين، حين همَّ كل واحد منهما نحو اكتشاف ذاته من خلال الآخر، قالت بفرح حقيقي وهادئ:

- فقط اترك له الدم الأحمر كي يفرح به فوق منديله.

علـيّ أن أعـرف الآن طريقـي جيـدًا، أرجعـت بصـري ودخلت الاسـتراحة، صالـة صغيـرة تطـل عليها غرفـة داخلية مسـدود بابها

إلـى المنتصـف، ويقـف مـن خلفه رجـل أصلـع يسـتقبل الزائرين ويبيع الأشـياء لهم، وفي ركن الصالة المطـل على الباب الخارجي كانــت فتحــة لباب آخر تقف على رأس ممر ضيــق يوصل إلى بابين لمرحاضين صغيرين، وكان المرحاضان للرجال والنســاء معًا، ولم يعرف أحد على طول امتداد تاريخ الاستراحة في الزمن لماذا لم يتم عمل مراحيض مستقلة.

كتمت رغبة في التبول، وكنت لم أزل أشعر بحر السيارة وجوها الخانـق، فاتجهـت صـوب الرجـل الأصلـع وطلبـت زجاجة كولا مثلجة، رفعتها لفمي وأنا ألف بجسـدي إلى داخل صالة الاستراحة ففرشت عيناي أرجاء المكان، ولمحت الشاب النحيل يجلس وحيدًا فـي الركـن المقابل يرتشـف كوب شـاي، لا أعرف لمـاذا راودتني فكـرة الجلوس إليـه واجترار أطراف الحديث معه، لكن إحساسـي بعصبيتـه وطبيعته النافرة جعلني أطـرد الفكرة من داخلي، ولما كان أفراد السـيارة لا يزالون يشغلون ممر المرحاضين، ولم تكن أمل قد خرجـت بعد، فقد خرجتُ من الاسـتراحة كلها وجلسـت أحتسـي زجاجتـي في سـكون على أحد الكراسـي المرصوصـة في مواجهة الطريق السريع.

يـد رفيعـة وطريـة وطويلـة اسـتقرت علـى كتفـي مـن الخلف، واسـتدار صاحبهـا ليقف في مواجهتي وهو يهمـس: «أنا جئت» في

دلال مَنْ يعرفني منذ أمد بعيد، ولم أستطع إخفاء دهشتي فقد كانت أمل، وكانت المرة الأولى التي تتحدث فيها إليّ بتلك الطريقة التي ترفع كل الحواجز الممكنة، لكنني لم أستطع إخفاء فرحتي بذلك أيضًا، جلستْ على الكرسي المجاور لي تمامًا، وكان في يدها الأخرى صينية عليها كوبان من الشاي وضعتها على أحد الكراسي في مواجهتنا، وقالت بنفس الهمس وهي تميل ناحيتي: «لكي يكون عيشًا وملحًا»، وضعتُ زجاجة الكولا على الأرض وأمسكت أحد الكوبين بعد أن ناولتها الآخر، ورحنا نرتشف معًا وبطيئًا وعلى إيقاع بسمة مشتركة، وعيوننا تكاد تشق الظلام الممتد في مواجهتها.

ما كدت أنتهي من احتساء كوب الشاي حتى أصابني ألم موجع أسفل بطني المشدود بحزام الجلد العريض فوق البنطلون الجينز الضيق، واجتاحتني رغبة عارمة في التبول، فاستأذنت أمل واتجهت نحو المرحاضين، غير أنني رأيت أن الازدحام الذي يسد الممر المؤدي إليهما لم ينتهِ بعد، فتركت الاستراحة كلها ولففت إلى الخلف حيث الظلام واتساع الصحراء المتزايد تحت وطأته، غصت حتى شعرت بالسكون، صوت الصمت في أذنيّ، وتردد أنفاسي صار مرتفعًا تحت وطأة اندفاع البول، وصعوبة السير في الرمال الناعمة والكثيفة والسوداء، حتى انتهيت وتطهرت بالرمال.

في طريق العودة شدني الوجه في القمر، ولم أستطع مقاومة جذبه لي، ووجدتني أعتلي قُبة عالية من الرمل، أجلس فوقها وأنظر نحوه

طويلًا، غير أنها لم تكن تلك النظرة المتسائلة عن ماهية التكوين أو الشـكل، إذ إن صفاءً ما أرسله صمت الصحراء وعليل هوائها النقي بداخلي، فشـق صدري حتى نفذ إلى القلب، فجعلها، لسبب أحس بـه ولا أسـتطيع القبض عليه، تماثل تلك النظـرة البريئة الفرحة، في الزمن البعيد، حين كنت أنا وسعاد نجلس فوق سطح بيتينا وحيدين فـي الليل، نتسـمَّع أصواتـه البعيـدة المتداخلة، نبـاح الكلاب على الغربـاء ولصوص الليل، نقيق الضفادع على جنبات الترعة ووسـط الحقـول، عـواء الذئاب فوق سـن الجبل علـى رأس البلدة، صوت المـؤذن العالـي فـي الفجر وهو يشـق صـدر الليـل مرتفعًـا باتجاه السماء، يتبعه وقع خطوات كثيرة لنجوم تجري من خلفه على إيقاع واحد ومتناغم، والقمر في سـماء المعنَّى مبتسـم كعادته، من حوله نجوم تومـض كحبات الترتر في طرحة امـرأة صعيدية، ونفرح جدًّا عندمـا كان يموت الشـيطان في احتراق نجم ما وهو يهوي مشـتعلًا نحو الأرض.

أهو اللعب واللهو؟ أم الطفولة والكشـف الذي يُذهب ألم عصا الأهل حين يُغرقنا السـهر في النوم حتى القيلولة، ويحوله إلى بهجة وضحك؟ أم أنها النغمات الموسـيقية العذبة لأصوات الكون، التي كانـت تُشـكل أرواحنا في بدء التدفـق، تقذف بداخلنـا طعم الحياة وقيمتهـا؟ لعلنـا نقـدر على الاحتفـاظ به مـن بعد في رحلـة الحياة الموجعة.

هأنذا أجلس وحيدًا، فما الذي أسمعه؟!

وها هو نجم يهوي مشتعلًا ويكشف عن الطائر ذي الجناحين الكبيرين، وهو يضرب بجناحيه في فضاء الكون، ولا يهتدي إلى شيء، فينطفئ سريعًا، بينما يظل الطائر معلقًا فوق سن الجبل الدائري، لا يحط فيرتاح، ولا يُحلِّق فيسمو.

ما زلت في الليل، لكنني أشعر أن الشمس بازغة بعد قليل، حتى أنني أراها وهي تطرد الظلام وتبعث بأمنية من أجلي، وساعتها لن أتمنى أن أكون وزيرًا أو قائدًا، فلن يكون ثمة مكان لمثل ذلك، حيث كل الناس فنانون، لذلك سأتمنى من كل قلبي أن أصير إنسانًا عظيمًا.

أيها الوجه في القمر

أنت في السماء مرتفع، منير

وأنا في الأرض قلق، مُطفأ

لا أشعر أنني بألف خير

حيث أنا دائمًا وحدي كل يوم

أعزف لحن الحزن مع ترديد أنفاسي

وأعرف الخوف في كل ما أراه

أكره أن يتقدم بي العمر وحيدًا

فهل لي أن أريح رأسي على صدر أحد؟!

وكلما اقتربتُ من الاستراحة يُخيَّل إليّ أنها تبدو على غير ما تركتها عليه، فثمة أصوات فرحة وهتافات وتكبيرات وأغانٍ وزغاريد كانت تأتيني منها في وضوح، ولما أصبحت في داخلها وجدت الجميع بلا استثناء، أصحاب الاستراحة والناس القليلين الذين كانوا يتابعون أخبار الميدان وأهل السيارة، يتراقصون فرحًا وبهجة، هتافاتهم وتكبيراتهم وأغانيهم وزغاريدهم ودعواتهم لا تكف عن الخروج إلى فضاء الصحراء الرحب الذي يحوطنا، وكأنهم يريدونه أن يوصل فرحتهم إلى السماء، ولم تنتظر أمل التي تقدمت نحوي كي أسألها عن سبب ما يحدث، بل أحاطت كتفيّ في فرح حقيقي رأيته يملأ كل عينيها الواسعتين، وهي تُخبرني بأن الثورة قد نجحت، وأنهم قد استمعوا منذ قليل لخطاب تنحي النظام الذي أصبح الآن قديمًا أو سابقًا.

يحق لك الآن أن تفرح يا ممدوح، ليتني كنت معك، لكن لا بأس فلكل منا فرحه الذي يليق به، وهذه الفرحة تكفيني الآن تمامًا بين أناس لا يجمعني بهم شيء غيرها، ربما لكي تكون فرحة خالصة، وبين يديّ أمل يولد الآن بداخلي، ويحق لي أن أكتشف ذاتي من خلاله.

ووسـط فرحتنـا الغامرة التـي لـم نكـن نفكر كيف يمكـن لها أن تنتهـي، ولا متـى، بـل إنني لن أكـون مبالغًا حيـن أقول إننـا أردناها فرحـة أبدية، خالدة، راح الرجـل الأصلع الذي ظل محتفظًا بهدوئه منـذ التنحـي، ولـم تتجلَّ فرحته إلا عن ابتسـامه صامتـة كان يوزعها علينا وعلى الاسـتراحة وعلى كل كائن أو شـيء كانت تُصيبه عيناه في تجولهما العشـوائي من حولنـا، يفاجئنا بخروجه من خلف باب بوفيـه الاسـتراحة، وهـو يتحرك بـذات الهدوء والصمـت والفرحة الداخلية، حتى خرج من الاسـتراحة ووقـف في مواجهة مبنى نقطة التفتيش المجاورة، ورأيناه وهو يكسر زجاج نافذة المبنى الخارجية ويقفز من خلالها إلى الداخل، وراح وهو يقف أمام باب المرحاض المغلق فوق المكتب القديم والوحيد داخل المبنى، يمسك بحديدة صغيرة ويمحو كل حرف من جملة «دورة مياه الباشـا» المكتوبة من فوقه، عندها تمنيت لو أن نجمًا آخر يسـقط الآن من السـماء، لأرى على ضوء احتراقه في الفضاء صورة الطائر الضخم، وكيف يبدو.

عندما تقدم الشـاب النحيل ناحيتي حسبته سيكرر على مسامعي كلمـات التهنئة التي كنا نتبادلها في عشـوائية وفـرح، خصوصًا وأنه وقف في مواجهتي بهدوء شـديد لم أتعوده منه منذ رأيته في موقف الأتوبيسات بمدينة أسيوط، لكنني وجدته يباغتني بالسؤال:

- لمحتك تنظر للقمر كثيرًا.

- لأنه في الظلام يبدو أكثر جمالًا.

- لا، أنت ترى فيه شيئًا، أليس كذلك؟

- وجه، مجرد وجه في القمر.

- نعم، لكنه وجه غاضب يا أخي.

وبقدر دهشتي من وجود إنسان آخر يرى ما اشتركت أنا وسعاد في رؤيته، إلا أن كلمة «غاضب» التي نطقها حادة وقاسية وهو يقرض على أسنانه في قوة استوقفتني بدهشة أكبر، وكان لابد لي من أن أؤكد على رؤيتي التي تخصني، وتخص حبي الحقيقي، وتخص صباي وحياتي كلها.

- لا يا صديقي، بل وجه باسم.

مط شفتيه في تعجب وعدم تصديق، وشدني في هدوء للسير صوب السيارة، التي فيما يبدو أن سائقها قد عزم على مواصلة الطريق، وها هو يطلق نفيره عاليًا وفرحا ليستدعي بقية الركاب، فالآن يطيب لنا جميعًا استكمال الرحلة مهما بلغت صعوبتها وقسوتها.

7

فرحنا بسيط، كما يأتي سريعًا يذهب سريعًا أيضًا، وكأنه مربوط بلحظته فقط، ومنبتُّ الصلة تمامًا عما قبله أو بعده من أمور، مهما بلغت درجة ارتباطها به، أو بقدرتنا على الحفاظ عليه، هكذا نسينا فرحتنا التي غمرتنا في الاستراحة وكأنها مجرد فقرة في البرنامج الترفيهي للرحلة التي نخوضها الآن، يقتصر دورها على الترويح عنا ثم تنتهي تمامًا بمجرد أن نبدأ في الدخول في غمار تجربة جديدة.

فها نحن أولاء مرة أخرى خلف نوافذ زجاجية لا فائدة لها، طالما ظلت تُطل على سواد لا تخترقه عيوننا، ومفتوحة على صحراء لا يبين غورها السحيق، ولا تبعث إلينا بهواء نقي، ها نحن أولاء قابعون على مقاعد لا حراك فيها ولا طمأنينة، أسفل سقف حديدي قُصَّ على قدر رءوسنا فحجبها عن السماء وعن القمر، بعيدون جدًّا في ركن غربي قصي نزداد فيه إيغالًا وبُعدًا عن النهر العظيم، وَهْم مائه العذب وهجرته المباركة، لا نكاد يعرف بعضنا بعضًا، لا أسماء ولا هوية ولا حتى مجرد حديث مشترك يشملنا، ويلم أطرافنا التي تبعثرت في أركان سوداء رغم أننا لم نزل في

منتصف الطريق، وما زالت الطريق طويلة ومملة، تملأها تعرجات وظلام، وتُطبق الصحراء على جانبيها في قوة قبر يُطبق على جسد كافر، وبالرغم من ذلك فإننا جميعًا، نحن الغرباء، مشتركون في مصير واحد، متجهون إلى غاية واحدة، بدأنا معًا وسننتهي معًا، ولولا ضوء السيارة الأمامي وما يكشفه من معالم خط أسود تتبعه السيارة حيثما تلوَّى أو استقام، لتُهْنا ولكانت النهاية، نهايتنا جميعًا، ونهاية المصير والغاية، بيد أنها لم تحدث بعد، وحتى إن حدثت فما الذي نستطيع أن نفعله؟!

لا شيء، هي الإجابة الحقيقية المؤكدة، إذ حتى هذه اللحظة لم نقدر على معرفة أنفسنا، لم يُحدَّد مصيرنا بعد، ولا غايتنا التي نتجه نحوها، فقد تقوقع كل واحد منا داخل ذاته مرة أخرى، داخل عالمه الخاص وتجربته الخاصة، ولم يسمح لأحد بالولوج إليها أو حتى مجرد مشاركته فيها، كيف وهي كما ندَّعي حياتنا الخاصة؟ وكأنه فعلًا وحقيقة أن لنا حياة خاصة بعد كل هذا الذي لا نملكه.

وكأنها ليست مجرد ذاكرة نتكئ عليها، ذاكرة خاصة تمتد لأعمق أعماقنا من البدء إلى المُنتهى، تُكَوِّنُنا ونحن لا نتحرك إلا بها، وهي مع ذلك ليست مقفلة، إنها مفتوحة على امتداد الزمن، غير أننا دائمًا لا نعي فنسميها «حياة» لكي نغرق فيها، ولكي نظل مبعثرين دائمًا داخل أركاننا المظلمة، في قلب سيارة لا تعرف غير السير في اتجاه واحد.

أنا، أمل، هذا السائق، ذلك الشاب النحيل، بقية الركاب، مَنْ نحن؟ ما خطبنا؟ أي شأن لنا كان أو سيكون؟ هل يستطيع الآن واحدنا أن يُحدِّد مصيره أو مركزه في الوجود؟

نظرت من خلفي، فركتُ عينيّ جيدًا وفتحتهما لأقصى مدى، فلم أفلح في رؤية شيء محدَّد، لا أجساد للركاب، ولا حركة لهم، ولا حتى صوت تنفسهم، ليس ثمة وجود فعلي لشيء، ليس غير النوم ههنا معين على عنت السفر، وذلك الظلام الذي يخيم فوق كل شيء، ويدسه في عباءة معتمة لا يُرى من تحتها، ظلام جاثم يمتد من مقعد الواحد إلى الأفق الدائري الذي ينتهي بنقطة مظلمة أيضًا، وينتهي ظلامها عند ذات المقعد الذي يجلس عليه، حيث لا يشعر بوجوده في هذا العالم المظلم إلا عبر اهتزازات السيارة الضعيفة وصوت تنفسه..

أشعلتُ سيجارة، ومع اشتعال عود الثقاب انتابت الركاب يقظة مفاجئة كأنها ثورة، سرعان ما انطفأتْ فرحتها مع أخذ عود الثقاب في الانطفاء، حتى إذا انطفأ تمامًا استغرقوا في النوم مرة أخرى واختفى وجودهم، هو فقط دخان السيجارة الأسود يُرى بصعوبة بالغة في وجه ضوء السيارة الأمامي، ورمادها الذي يهوي مفتتًا على الأرض.

السائق لا يزال مُصِرًّا على التحديق في الطريق، لا يهمه غير متابعة القيادة عبر صحراء تحوطها مخاطر جمة، وتعرجات ملتوية

وكثيـرة، لا يأخـذ أو يرد حديثًا لأحـد، كأن القيادة هـي كل الوجود بالنسـبة له، فلماذا يعبأ بما يدور من حوله؟! حتى أمل لم يكن يبدو منها غير السكون، فهل غلبها النوم، أم استشعرتْ أنني قد تجاوزت حدودي معها؟ لقد فكرتُ فـي كلا الاحتمالين أيهما الأرجح، ولم أخرج من دائرة التأرجح هذه إلا حين اشـتعال عود الثقاب وإضاءته الخاطفة للمكان، لحظة أن بدا وجهها مصوبًا للأمام، وهي تلحظني حائـرة وتعقد كفيها في حجرها، ورغم مباغتة الاشـتعال فقد ظلت مسـتكينة، فهل استشـعرتْ أنها قـد فعلت كل ما عليهـا، وهي الآن تنتظر في سكونها لكي أفعل الذي عليّ.

لا أستطيع إلا أن أكون صريحًا مع نفسي.

لقـد فكرت فيها كثيـرًا منذ بداية الرحلة وما زلت، منذ سـماحها لـي بالركـوب إلـى جوارها ولم يكـن عليها فعل ذلـك، وفي خلال كل ما مر من سـفر وعنت وطعـام وحديث، فلماذا كان اختيارها لي وحـدي دون غيري مـن الناس الكثيرين الذين كانوا يملأون سـاحة الموقف؟

أمل، أهو اسمها الحقيقي أم ماذا؟

لكن ما الذي يدعوني للتفكير في كل ذلك؟

أليـس جـل مـا أريـده منهـا، ويرتسـم حقيقـة تَمْثُـل داخلي في وضوح، هو ذلك الجسـد الذي يرتج إلى جواري باهتزازاته اللدنة،

أن أبـل ظمئي عبـر انتصارات الكشـف العظيمة، وامتـلاك المعرفة الكاملـة والتحقـق، وكل مـا عجزتْ عـن أن تهبني إياه سـعاد، أمل جسـد أنثـوي خالص، بل مـاذا يمكن أن تكون الأنوثـة من دونها؟! يمـلأه لحم بض وأبيض وناعم، تكسـوه حُمْرَة دم سـاخن ومتدفق، ويتقدمه نهـدان كاملان في اسـتدارتهما وامتلائهما، وينتصب على فخذين حين يلمسـني أحدهما فقط تسري في جسدي الرعشة التي تُشبه فورة البركان.

أليس هذا ما أعمل جاهدًا للحصول عليه؟ غير أن سكونها الآني يحـد من جرأتي، أشـعر أنهـا تشـتهيني أيضًـا، نظرتها،احتكاكاتها، قدرتهـا على اللمـس، وكل ما تنطق به «لا بأس» وأن ترنو إليّ حانية وتبتسم.

استنشـقتُ دخـان سـيجارتي ونفثتـه نحوهـا في قوة، فسـمعت صوت شـهيقها عاليًا، وأحسسـت باقتراب جسـدها بعض الشـيء، وفـي رسـالتي الدخانية الثانيـة كان لزفيرها أن يصخـب عاليًا أيضًا، ومندفعًـا فـي قوة تعـدل قـوة اندفاع جسـدها نحوي حتى اسـتقرار فخذها في فخذي، ورأسـها قد نامت تمامًـا على كتفي، ومثل امرأة محرومة راحت تحك ذراعها بذراعي، وتغرس أنفها في عنقي حتى لسـعني نفسـها السُّـخن فاضطربتُ، وها هـي كفها تحضـن ركبتي وتزحـف ببـطء لتتحسـس فخـذي، أصابعهـا تنقبض وتنبسـط في

ضغطهـا علـى اللحم المرتعش حتـى احتضنتني تمامًـا، ولما كانت كفها في مثل سـخونة بدني، فقد ركبتني الرعشـة التي تُشـبه إلى حد كبير فورة بركان يستعد لانفجاره الأخير، المدمر، ودخلني نداء.

لـم تكن مثل تلك الرعشـة التي أحسسـتُ بها حين رسـتْ كف سـعاد في كفي، واستسـلمتْ تمامًا مع تلألؤ الدموع في عينيها حين ودعتهـا مرتحلًا، ولا تلك التي رأيتهـا في حضن أمي الحار الطويل قبل خروجي من البيت، في حضن أمي كان الخوف من عدم عودتي مرة أخرى، فقد كانت أحداث الثورة تتصاعد بشكل هستيري، وكان الجيـش في بؤرة أحداثها، أصرتْ أمي على السـير معي حتى الباب البراني، حيث كانت سـعاد وأبوها يجلسـان علـى الدكة المجاورة، عينـاي كانتا في عينيها تمامًا وأنا أتقـدم نحوهما، وقلبي يضج بنداء عظيم لو أتيحت له فرصة الخروج لحطم كل الأشياء، لكنه سكت، فقط لأن سعاد هي مَنْ تريد ذلك، ولـم يكن من الرجولة في بلدنا أن يُفشي المحب سر محبوبته.

وماذا عسـاه أن يقـول إن خرج؟ اهربي معي، دعـي القبيلة تفرح وحدهـا بأعراسـها التي تقتلنا واحـدًا بعد واحد، دعي ذلك الشـيخ الأعمـى الذي يرى الأشـياء مـن وراء غيمة سـوداء، ولأنني أعرف سـعاد تمامًـا فقد أعفيتها مـن أن تردد على أذنيّ كذبًـا «ألم تقل أنت بأن الزمن كفيل بإصلاح الأمور» .

نعم يا سعاد، قلتها يائسًا فهل كان يجب عليكِ تصديقي؟!

أخذت يد أبيها وصافحتها، وفردتُ كفي لسعاد فكانت كلها كف نامت في يدي، وفي لحظة استسلام غريب تمنيته وخشيته سعاد حين أتي صوتها خفيضًا، وباكيًا في صمت، ومنكسرًا يصعد من غور سحيق لا قرار له «مع السلامة» وكأنها تودعني إلى الأبد، فتحسستُ شنطتي الخضراء، متوسطة الحجم، فوق كتفيّ، ومضيتُ على الأرض الترابية بخطوات مهتزة صوب موقف السيارات، ولم أنظر خلفي، فالآن لا مفر من الرحيل.

فهل يحق لي الآن ألا ألبي نداء كف في مثل سخونة بدني؟!

أن أهرب من الرعشة المشتهاة، ومن التحقق؟

منعني الظلام من رؤية قُرب انتهاء السيجارة، فأحسستُ بلسعتها بين إصبعيّ، وعندما قذفتها من النافذة كان لصدري أن يقع في صدرها، ولشفتيّ أن تتلمسا خفيفًا شفتيها، وأن أذوق، فلماذا إذن أقبع وحيدًا في مكاني، أحبس نفسي في الذكريات، ليس بداخلي شيء سوى الإحساس بالحرمان، والرغبة الجامحة في أن أهرول كمجذوب حقيقي في ميدان مسجد «السيد عبد الرحيم» ، أسابق ليلًا طويلًا لا ينتهي، أركانه موحشة ومظلمة، وظلامها بحرٌ متلاطمة أمواجه أوشك على الغرق فيه، وتركبني حالات غريبة من الحزن والألم والبكاء الطويل المستمر.

الآن يخيل إليّ أن ما كان بيني وبين سعاد قد أصبح بعيدًا جدًّا، وأنه لا يقدر على شيء سوى أن يعزف على لحن الخوف، ولحن الموت، بألم شديد.

وألمح أمام السيارة تلك الأضواء الصفراء، فأظنها نقطة مرور «النقب» ، ليس سواها، رغم أنه لم توجد بها مثل هذه الأضواء الكثيفة من قبل، وظلت السيارة تجري على الأرض المستوية بلا اهتزازات تقريبًا، حتى إذا اقتربت من نقطة التفتيش وجدنا الطريق وقد سُدَّت بمتاريس حديدية، ويتحلقها جمع غفير من العساكر والضباط على غير العادة، فظننا أنها مجرد احتياطات أمنية بسبب أحداث نجاح الثورة، حتى لا يُفسد أحد ما تلك الفرحة العارمة التي عشناها بشكل شخصي في فترة الاستراحة، وشاهدناها عبر شاشة التليفزيون ترج الأماكن كلها..

أشار أحد الضباط للسيارة فتوقفت، وفيما كان يدنو منها شرعنا جميعًا بحركة آلية في استخراج بطاقات هوياتنا، غير أن الضابط تفحَّص وجوهنا فقط وأوراق السائق ورخصة القيادة، كل هذا وبقية زملائه يتغامزون على البُعد القريب من السيارة، ويضحكون وتطفح على وجوههم علامات رضا مبهم، حتى أزاحوا المتاريس من أمام وجه السيارة، فانطلقت وسط ضجر الركاب وضيقهم من تكرار مثل هذه المواقف الآن، لكنهم سرعان ما استعادوا سكينتهم الصامتة،

وترقبهم الحذِر، وهم يتطلعون خارج السيارة التي بدت أكثر حذرًا وترقبًا منهم وهي تسير وئيدة في هبوطها «النقب» متيقظة لتعرجاته الخطرة المتتابعة، حتى أصبحت في الأسفل الآمن، وحتى أضحى الجبل من فوقنا وكأن رأسه في السماء، وبدا الركاب في غاية الرضا عن أنفسهم.

وعادت الطريق المستوية تفرش هدوءها أمامنا حتى قَلَّت حركة الركاب ثم تلاشت، فلم يبقَ شيء يدل على وجودهم، غير أنهم لم يكونوا نائمين تمامًا فصوت تنفسهم الممتزج بالضيق والغضب المكتوم ظل مسموعًا، ففيما يبدو أنهم فضلوا البقاء في مقاعدهم ساكنين، يرقبون بغير حركة، ويتوجسون بخوف قديم سرعان ما بدأ يُعاودهم، من ذلك الذي لم يأتِ بعد ويحسونه قريبًا، فقد تذكرنا جميعًا أن نقطة أخرى للتفتيش لم تزل تنتظرنا في «المنيرة» قبل الدخول إلى المدينة الخارجة، ويبدو أننا قد مللنا من لعبة النوم والاستيقاظ غصبًا.

8

من بعيد، وعلى مسافة غير قصيرة عبر الظلام، انبثق ضوء أصفر، خافت، لكنه استطاع أن يقسم السواد أمام عيوننا بحيث نميز بين الأرض المظلمة والسماء الخالية من النجوم، وجعل يكبر ويتضح كلما ازدادت السيارة اقترابًا منه، حتى بدا واضحًا مع دنوها المتزايد أنه لمصباح كهربائي، ففي ظلام الصحراء، كلما طالت فترة مكوثك فيها، تستطيع أن تميز بين مصادر الضوء المنبثق على البُعد من لونه وقوته وقدرته على الثبات.

هي نقطة مرور المنيرة.

ولأنها تقف على رأس المدينة الخارجة فقد أنارتها الكهرباء بشدة، وانتشرت على جانبيّ الطريق عندها أعمدة كهربائية كثيرة، تعلوها مصابيح فسفورية ضخمة يشع نورها على الدوام، حتى لا تكاد نقطة المرور أن تنطفئ بالليل أبدًا، حتى أعالي أشجار الكافور السامقة، والمنتصبة إلى جوارها باتجاه أطراف السماء، كان قَدْرٌ وافر من الضوء يُصيبها بحيث تتلألأ أوراقها بلونها الأخضر كأنما في ضوء الشمس، وتطير بفعل هواء الصحراء مثل فراشات طيبة.

لكنها الآن مطفأة؟!

ليس سوى ذلك المصباح الضعيف ينفث ضوءه وحيدًا مثل ثعبان يتربص.

وسط ذهولنا جميعًا علا صوت الشاب النحيل مخترقًا الصمت والظلام، كان يوجه حديثه إلى السائق في هدوء وثقة، طالبًا منه الوقوف هنا والآن، الاستغراب والدهشة هما فقط ما ارتسما على وجوهنا عند سماع كلامه، وظهرا واضحين أيضًا على عيوننا التي تحولت باتجاهه بمجرد أن أضاء السائق نور السيارة الداخلي، والتفت نحوه بسرعة وقلق مستفسرًا عن سبب هذا الطلب الذي بدا غريبًا في مكانه وزمانه، غير أن الشاب النحيل بدا كمن عقد العزم على أمر يقيني، ولا جدال فيه، وهو يقول بحزم صارم:

- خير، فقط قف هنا.

أوقف السائق السيارة، والتفت إلى الشاب الذي كان قد بادر بالميل باتجاهه وهو يمد إليه أجرة السفر المُضاعفة في صمت شديد، غير مبالٍ بعلامات الذهول التي تتجه من وجوهنا نحوه، بل إنني لن أكون مبالغًا إن قلت إنه لا يرانا من الأساس، فتح الشاب النحيل باب السيارة الجانبي بقوة واستدار على مقعده في مواجهة الفراغ الممتد من أمامه، بدا كأنما يتأمل الظلام الذي يقف على رأس الكون منتصبًا وشامخًا وعلى استعداد تام لابتلاع

كل مَنْ تسول له نفسه الولوج بداخله، أو أنه يبحث عن شفرة ما لفك طلاسمه المتداخلة، ووسط ظلام الصحراء وصمتها المطبق، الجليل، واتساعها الرحب الذي يتخفى من وراء عباءة الليل الأسود نزل الشاب النحيل حاملًا شنطته الصفراء الصغيرة فوق كتفه، أعطى ظهره للطريق واتجه كسهم يشق الفضاء الداكن، ولم نكن نعرف كيف سيرى طريقه في هذه العتمة؟!

ودنتْ السيارة على مهل باتجاه نقطة تفتيش المنيرة، وكشف نورها الأمامي عن متراسين انتصبا بعرض الطريق بالتبادل، فعبرت بينهما في خط حلزوني، لكنها فوجئتْ بمتراسين آخرين يسدان الطريق في وجهها، ويقف إلى جوارهما عسكري ورجل بجلباب قاتم، الآن تقف السيارة تمامًا ويتقدم الرجل باتجاه السائق الذي حيّاه بابتسامة مغتصَبة وهو يناوله أوراقه وأوراق السيارة، تفحصها الرجل جيدًا ثم ردَّها إليه، وفي حركة مباغتة وسريعة، يبدو أنه مدرب عليها جيدًا، وجدناه إلى جوار الباب الجانبي، يفتحه ويُطل برأسه إلى داخل السيارة ليتأملنا واحدًا واحدًا، ورحنا نشرع في استخراج بطاقات هوياتنا بضيق كبير عندما فوجئنا بسؤاله المباغت الذي نطقه بذعر، وعدم قدرة على تصديق ما ترى عيناه:

- أين الشاب النحيل الذي كان يجلس هنا؟!

ووضع يديه على نفس الكرسي الذي كان يجلس عليه الشاب إلى جوار الباب الجانبي.

قلنا في لسان واحد، وبدهشة كبيرة:

- نزل في الصحراء.

والرجل لم يزل غارقًا في عدم القدرة على التصديق التفَّ سريعًا وجرى إلى داخل نقطة التفتيش، ولم يكد يمضي على وجوده داخلها سوى لحظة وجيزة، حتى فوجئنا بإضاءة مصابيح الأعمدة الكهربائية كلها على طول الطريق وفي المباني المجاورة، ومصباحان كبيران أخذا يشعان ضوءهما من أعلى مبنى نقطة التفتيش ويغمران المكان، والتفتنا لنجد سيارتنا وقد أحيطت بعساكر وضباط لا حصر لهم، وثمة سيارات عسكرية كثيرة، مختلفة الأشكال والأحجام والألوان، خرجت مسرعة من خلف أشجار الكافور التي لا تبعث بغير الظل عندما يكون النهار مسيطرًا، وتحلقت حولنا، وبدا واضحًا لنا، وسط ذهول ضخم ومُبْهَم، أن سيارتنا الصغيرة قد وقعت في شَرَك كبير ومُبْهَم أيضًا، ولا أحد يدع لنا فرصة للسؤال عن شيء، أو محاولة فهم أي شيء على الإطلاق، وبعدما تأكدوا جميعًا من فراغ السيارة من الشاب النحيل، وسألوا كثيرًا عن مكان نزوله وجهة تحركه، ركبوا سياراتهم وأسرعوا ليقطعوا الطريق نهبًا في الاتجاه المعاكس، وإذ يرفع العسكري المتراسين عن عرض الطريق فلأن

الرجل ذا الجلباب القاتم أشـار إليه، وإذ يُدير السائق محرك سيارته صوب المدينة الخارجة فلأنه أشار إليه بذلك أيضًا.

نجحت الثورة لكننا لم نتعرف بعد على أنفسـنا، وها نحن أولاء مرة أخرى في ذات الطريق التي كنا عليها، بعدما تلاشـت من خلفنا أضواء المصابيح، واختفت أشجار الكافور العالية، امتداد الصحراء المظلـم حولنا جاثـم بغير منتهى علـى جانبي الطريـق، وحين أطفأ السـائق نـور السـيارة الداخلـي دخل الظـلام إلينا فسـاد فينا صمت مهيـب، لـم يكـن صمتًـا هادئًا فقـد كان يتأجـج داخلنـا ويضطرب بانفعالات قلقة، وَشَـْت عنها همهمات كثيرة متعاقبة، وتأففات قوية تندفـع بعنف وضيق، نظرتُ خلفي فلم أجد الشـاب النحيل، لكنني وجـدت في مقعده الذي أصبح خاليًا تسـاؤلات كثيرة وحائرة، تنط مـن عيون الـركاب وتُلقي عبء اسـتفهاماتها عليه، والمقعد شـاغر لا يمتلـك الإجابـات، وليـس فـي وسـعه عمل شـيء من شـأنه أن يُريح أرواحهم الحائرة، فتسـبح الأسـئلة الخاوية في ظلام السـيارة لا تـكاد تسـتقر على ألسـنة الركاب، حتى تنسـل علـى هيئة حديث خافـت وحَـذِر، يتبادلونـه داخل أزقة عقولهـم الملتوية علـى التيه، وقلوبهـم الراقـدة على التواطـؤ والصمـت الجميل، حتى السـيارة على الأسـفلت بدا سـيرها واهنًا وخافتًا حتى لتظنها واقفة، نوافذها مفتوحة على الظلام، ظلام يوحي بالسـكون والحيطة، ويبزغ القمر

المنيـر من قلبه البعيد، هنـاك في الأعلى، يتخللـه الوجه وقد تخلى عن بســمته المعتادة لي، وبدا كأنما ينظر إلى السيارة كلها في اهتمام مَنْ يُقبل على التهام فريسة، وفي سرعة خاطفة ومباغِتة يثب في هالة ضوئيـة لا انتهـاء لامتداداتها النورانيـة، ويحتويني داخلـه، نلمحها ذاهلين حتى أننا نظن أن الســيارة قد توقفـت، أو لعلها فعلًا وحقيقة قـد توقفت، لا أعرف على وجه اليقين، لكنني أرى الآن يقينًا الوجه وهو يدخل إلى قلب الســيارة، ويســتوي في مواجهتـي على حافتها الأماميـة، وفـوق أزرارهـا المضيئة، كأنما يعتلي عرشًـا، فأســمع ما يُشــبه صلصلة الجرس، ويثقل جسمي ويســخن ويتصبَّب منه عرق غزير، فأضرب جبهتي مدهوشًـا، ومسحورًا، ومحاطًا بهالة لانهائية من النور والبهجة.

أنا: يااا أنت حقيقة؟!

الوجه: وماذا كنت تظن؟!

أنا: لم يصدقني غير سعاد.

الوجه: هكذا العاشقون دائمًا.

أنا: أنت تقول ولا تُفسر.

الوجه: التفسير عليك.

أنا: وإن لم أستطع؟

الوجه: بل تستطيع، كيفما ترى ستفسر.

أنا: (أضغط رأسي كأني أفكر، أو أشتكي صداعًا) ليس في هذه الحالة.

الوجه: من أجلها أتيت لكم.

أنا: ماذا تقصد؟!

الوجه: الاستلاب، الخوف، الحرمان، التقوقع داخل الذات، ذلك التوحش الذي يملأ دواخلكم، لستم سوى مجموعة من الغرباء تشتركون في مصير واحد وسط التيه والظلام. أنتم غرباء فعلًا، انظر.

(يسحب الوجه عينيّ معه فأشعر وكأنني أتحرك بإرادته، وهو يتجه بنظره إلى مؤخرة السيارة فيغمرها ضوء عظيم، يبدو الأربعة المعممون في المقعد الخلفي وكأنهم يسبحون فيه، وهم ينظرون إلى بعضهم في جِدِّية مفرطة، ويتحدثون بغضب، وفي الخلفية يظهر الظلام والسكون)

الأول: (يضرب كفيه، وتعتلي وجهه علامات الحيرة). ما العمل؟ ها نحن قاربنا على الوصول.

الثاني: إن رفض سنقتله.

الثالث: لا، إما أن يرد المبلغ أو يأتي بالبضاعة.

الرابع: وإن رفض؟

الثاني: إن رفض سنقتله.

الأول: علينا التزام الصبر، لو رد المبلغ لن نستفيد شيئًا، وسنكون خاسرين لفترة وجوده معه، ومن المحتمل أنه تاجر به وكسب، بالنسبة لنا البضاعة هي الأهم «البلح العجوى» سنكسب منه كثيرًا، فهو ضربة الحظ التي سترفعنا فوق رءوس أهل البلدة، سنصبح أسيادها وأغنى مَنْ فيها.

الثالث: علينا إذن أن نعمل جاهدين كي نأخذ بضاعتنا.

الأول: بكل هدوء وصبر.

الرابع: وإن رفض.

الثاني: إن رفض سنقتله.

الأول: ليس علينا قتل كل من استغلنا.

الثالث: وإلا وجب علينا قتل السائق أيضًا.

الثاني: السائق كنا في حاجة إليه، لذلك سمحنا له باستغلالنا.

الرابع: صحيح إن كان لك حاجة عند الكلب قل له يا سيدي.

الأول: وكذلك تاجر الخارجة، لنعتبره كلبًا.

الثاني: لسنا في حاجة إليه فهذا حقنا، لقد أخذ النقود كي يأتينا ببضاعة، لا أحد يستطيع أن يَنْصُب علينا.

الثالث: وما الفرق بين النصب والاستغلال؟

الأول: العجوى هي الأهم من المبلغ ومن القتل، لنعمل جاهدين كي نأخذها.

الثالث: أو نأخذ فلوسنا.

الرابع: وإن رفض؟!

الثاني: (يصرخ بكل عزمه) إن رفض سأقتله.

***

(يتجه الوجه بعينيه داخل السيارة إلى الجانب الأيسر، فينسحب الضوء من مؤخرة السيارة إليه، فأرى الرجل إلى جوار المقعد الخالي يجلس مقرفصًا وهو يحدِّث نفسه، ضامًّا فخذيه إلى صدره، بينما يداه معقودتان حول ساقيه وقد ارتاح ذقنه فوق ركبتيه في استسلام ورضا، يظهر جانبه الأيمن، وفي الخلفية تظهر النافذة مفتوحة على الظلام).

الرجل: هأنذا قد تعديتهم، لم أفعل شيئًا لكنني نجوت، ولن يقدروا الآن على الإمساك بي كما فعلوا من قبل، رغم أنني لم أفعل شيئًا من قبل، لكنهم أمسكوا بي، ويبدو أنني

سأظل كذلك لبقية حياتي، لابد للإنسان من أن يخاف شيئًا، فإذا كان لابد من الخوف، فمن الذكاء أن أختار أقله، فأنا رجل مسالم يا نفسي، وأنتِ تعرفين ذلك جيدًا، فهم إن أخذوا واحدًا منا يعصرونه كلامًا حتى الموت، وليس في ذلك أي خير على الإطلاق، وأرجوكِ لا تُحدثيني عن الاستقرار فأنا لا أعرف له معنى غير أن يكون الواحد قابعًا في مسكنه أو عمله دون أن يقدر أحد على الإمساك به.

نفسه: مُدَّ ساقيك واعدل جذعك، الخوف هكذا أفضل.

الرجل: لا هكذا أفضل، أنا مثل الآخرين تمامًا، لا يغرَّنكِ أنني أقبع إلى جوار المقعد الخالي، فسأثب الآن إلى المقعد الخلفي، وأختفي حيث الآخرون مرتاحون في خوفهم، وستثبين خلفي أيضًا، لا شيء لنا غير ذلك، وأنتِ لن تقدري على مخالفتي أبدًا.

(يثب الرجل إلى المقعد الخلفي مع الآخرين ويختفي في الظلام، وتثب نفسه من خلفه)

***

(يُضيء الوجه المقعد الأمامي فيظهر السائق من جانبه الأيمن، يده اليمنى فوق مقود السيارة، وكوع يسراه على حافة النافذة خلفه، يدعك جبهته بأصابعه كأنما يفكر بعمق وحيرة، في الخلفية الظلام مشوب بانعكاس ضوء السيارة الأمامي).

السـائق: أنا مَنْ يقود هذه السيارة إلى مستقرها، أستطيع أن أُبطئ أو أُسـرع أو حتـى أتوقـف متى شـئت، كل شـيء هنا بـيـدي وليس لأحد أن يناقشني فيه، حتى أجرة الطريق التي فَرَضْتُها مضاعفة على السـيدة لم تناقشـني فيها، رغـم أنها لو رفضت لقبلتُ أن أسـافر بها إلى آخر الدنيا عن طيب خاطر، فأنا لم أكن أنـوي السـفر إلى مدينة الخارجـة أصـلًا، في ظل هـذه الظـروف الصعـبة، لـولا أن أنوثتها برقت في عينيّ بضوء خاطـف، وأخذت قلبي ورغبتي إلى مدارات التوهان وذهاب العقل، لكنهـا قبلتْ مضاعفة الأجرة كأنما أحسَّتْ برغبتـي وأرادت أن تُلجمها، فوهبتهـا المكانين في المقعد الأمامي وأنـا أُمَنّـي نفسـي بصحبتهـا الطيبة أثنـاء الطريـق، لعلـي أقدر على اجتذابها نحوي، لكنها ألجمتني للمرة الثانية القاطعة.

ووهبـت صُحْبَتهـا لذلـك الشـاب الصغيـر عـن رضـا مـا زلت أسـتغرب لـه، وأحسـد صاحبه علـى ما ينعـم به من قُـرب وحديث وملامسة لجسدها البض مع كل اهتزازة تُحدثها وعورة الطريق.

لا بـأس، يكفيني الربح المـادي، فحتى الأربعة المعمِمون وبقية الـركاب اسـتغللت حاجتهـم للسـفر، أعـرف ذلـك جيـدًا، لكن ما حيلتي، أنا أبديت استعدادي للسفر بهم تحت ضغط هذه الظروف، وهم وافقوا، لا ذنب عليّ إذن، وإلا كيف أسوق وأربح؟!

***

(غمر الضوء الجانب الأيمن من المقعد الأمامي للسيارة، عندما سلط الوجه عينيه ناحيته، فظهرت السيدة من جانبها الأيسر، وهي تضع يدها اليسرى فوق فخذها، وتستند بكوع يدها اليمني على حافة النافذة من خلفها، كانت تدعك جبهتها بأصابعها كأنما تفكر في عمق، وحيرة، ونظرها مسترسل للأمام، وفي الخلفية، من خلال النافذة، بدا الظلام فضيًّا وهو يمتزج بانعكاس ضوء السيارة الأمامي فيه).

السيدة: أنت لا تعرف مقدار حبي لك، أعرف ذلك، بل أعرف ما هو أكثر، فأنت لا تحبني على الإطلاق، إذ كيف يتسنى لك أن تحبني خلال فترة قصيرة كهذه، إنها قصيرة حقًّا بالنسبة لرجل مثلك، بل بالنسبة لكل الرجال، وأنا أعذرك إذ أعرف جيدًا لكوني امرأة ومن خلال تجربتي الخاصة أن الرجال يحتاجون إلى وقت أطول كي يتسلل الحب إلى قلوبهم، صحيح أنها مسألة تختلف من رجل لآخر بحسب السن وما أوتي من حكمة، وقد تستغرق يومًا أو شهرًا أو حتى عامًا، ومنهم من يأخذ كل الوقت بحيث يظل جامدًا لا يقدر الحب على التسلل إليه، ثم أنت لا تعرفني حقيقة، فاسمي وحده لا يدل على حقيقتي، وحقيقتي ليست لها علاقة بابني أو بكوني زوجة، ولو عرفتني لأحببتني، لا أعرف بالضبط لماذا قلت أم صابر ولم أقل حقيقتي، ربما فكرت أنني ما دمتُ أحببتك منذ رأيتك،

أنك إذا عرفتني كأم وزوجة، وقُدِّر لك أن تحبني، فسوف يكون حبك خالصًا، من أجل ذلك أعذرك، لن أطلب منك الحب القلب لكن فقط حس بي، ليكن جلوسك إلى جواري جزءًا من وجودك في هذا المكان، ليس الوجود المادي البحت، فهذا سهل وموجود بالبديهة، فقط اسكب بعضًا من روحك عليه، كي يكون استمتاعك بلمس فخذي الطرية، واستنشاقك عبيري، استمتاعًا حقيقيًّا، وَلَّدَه الحب وبَعُدتْ عنه الشهوة، أنت حتى الآن تشتهيني فقط، عرفت ذلك حين قبضت عليك بكفي، كنت نافرًا ومنتصبًا مثل عمود كهربائي مطفأ تناوشه النجوم، لكنني ما دمتُ أحببتك فسوف أعرف جيدًا كيف أجعلك تحبني، فمَنْ يُحِبُّ يجب أن يُحَب، طبعًا هذا يخالف مفهوم الحب عندك، أو عند الرجال جميعًا، إذ إنهم كما قلت سلفًا يحتاجون إلى وقت، لكنك عندما تقابل فجأة إنسانًا لم تكن تتوقع رؤيته، فهكذا يكون الحب عندي، ذلك ما كنت أبحث عنه ووجدته فيك، منذ عرفت خيانة أمي وأرغمني أبي على الزواج، ومنذ سقط زوجي من فوق الجدار وارتحلنا إلى المدينة الخارجة، فهل صدفة أن أجد فيك بغيتي مباشرة بعد وفاة أبي؟! أن تُفك القيود التي جثمت طويلًا حتى خلتها لن تنكسر، أم أنها القلوب الطيبة تحلق كما الطيور الضخمة ذوات الأجنحة الكبيرة في سماء الله الواسعة، كي تتلاقى على سفر نهائي، لا رجعة فيه..؟

هـا أنـت ذا تـرى أنني امـرأة صالحة، طيبـة القلـب، أحبك بكل جوارحـي فلماذا لم تحبنـي بعد؟ ألا تصدقني؟ إن لم تكن تصدقني فاحمل شهوتك بعيدًا وقم من جانبي، أرجوك، أتوسل إليك، قم من جانبي، قم أو التصق أكثر.

(وتستلقي برأسها على كتفي).

***

(داخل السـيارة في المقعـد الأمامي، أجلس فـي مواجهة الوجه القابع على حافة السيارة أمامي).

أنا: (أضغط رأسي كمن يشتكي صداعًا) الآن وبعد أن واجهتني بكل شيء، ماذا أقدر أن أفعل؟!

الوجه: كل شيء!

أنا: ماذا تعني؟

الوجه: أعني ما أقول.

أنا: أتوسـل إليك أن تترفق بي، خاطبني على قدري، لا تتحدث ألغازًا يتعبني تفسيرها.

الوجـه: أتعلـم أننـي أقـدر أن أفعـل شـيئًا عظيمًـا؟ أن أتحملك وأنت تضغط جبهتك كمن يشكو من صداع دائم، وأنت ترسم على

وجهك علامات الاستغراب والدهشة، ثم أتركك تتوسل إليّ ألا أحدثك ألغازًا.

أنا: أنت بينت الخوف وواجهتني به، الآن أعرف أنني خائف، لكنني لا أعرف ماذا أفعل؟

الوجه: كل شيء.

أنا: (أحرك كتفي في تعب، فتنزاح رأس أمل قليلًا، ثم تستقر مكانها على كتفي مرة ثانية).

الوجه: هل أثقلتك رأسها؟

أنا: لا، لقد سمعت حديثها وأعرف الآن أنها تحبني، لذلك سأتحمل رأسها وهمومها، إنني لا أستطيع أن أرد أحدًا، فما بالك بأحد يحبني.

الوجه: هي بذرة الخير في قلبك، دعها تنمو وتفرع وتزهو.

أنا: ما الخير؟!

الوجه: أنت لم ترَ بعد كيف تستطيع الشمس أن تبزغ خلف سن هذا الجبل رغم ما يجثم عليه من ظلام ووحشة وصمت، رغم أن النيل لم يزل يجري صوب شماله ولا يتريث قليلًا عندكم، رغم أن آباءكم لا يزالون يصرون على حق القبيلة ويحرصون على ميراثها وتوريثها، رغم أن البنات لم يزلن

ظاهريًّا يعرفن معنى الأسرة، ومعنى الطاعة ومعنى الولاء بينما يُصررن أنفسهن في قلوبهن، رغم أن شجر القمح لم يعد يثمر كما كان، رغم أن بذرة الخير في جوفكم يُقَطِّع الخوف أوصالها، رغم أن وجهًا في القمر تختلفون في رؤيته وتمارسون فيه التأويل، إلا أن خلف سن الجبل هذا شمسًا سيبزغ نورها الوهاج، تمحو تأويلكم وتبدده كما يختفي دخان السيجارة في الهواء، أو قطرة من ماء نيلكم تذوب في مياه بحر أمواجه هائجة، وسيكون لكم جميعًا، ساعتها، أن تنزعوا عنكم ثيابكم القديمة، جلودكم القديمة، لا لكي تصبحوا عرايا، أو مُحَرَّرين، بل لكي تتطهروا وتفرحوا بلباس جديد، أبيض وهو يلمع تحت ضوء الشمس، وفي ضوء القمر.

(يتحرك الوجه جهة النافذة اليمنى ويهم بالخروج).

أنا: (منزعجًا) هل ستذهب؟ امكث قليلًا، قليلًا فقط.

السيدة: أتمنى أن تمكث كثيرًا جدًّا، إنني عندما أذكرك أعرف معنى الحب.

السائق: كنتُ قد نسيتك، لكنني مع ذلك أعتقد أنني أحبك، أحب أن تمكث إلى جواري، أنا كما هو أنا يوم خرجتُ من رحم أمي، لكن أحدًا لا يُذكرني أو يعينني.

الأربعة المعممون: كلنا ننسى بعض الوقت، كلنا نحتاج إلى الذكرى.

الرجـل إلى جوار المقعد الخالي: أن تكون خائفًا يعني أن تكون شريرًا، إلى جوارك لا أعرف معنى الخوف فهلا مكثت قليلًا.

بقيـة الـركاب: نحـن قـوم مسـالمون، وكل مـا نتمنـى أن يكون وجودنا خاليًا من التعقيدات.

(يخـرج الوجه مـن النافذة اليمنى ويصعد في السـماء، ثم يدوي صوت فـي الفضاء الواسـع، الممتد، يهتـف بأسـماء الراكبين وهم يلبونه كل باسمه، ثم يأخذ في الخفوت كأنما يزداد في السماء إيغالًا وهو يردد).

الصـوت: عندمـا تعرفون أن الرمـال البيضاء، الهشـة، يمكن أن تكون كالجبال الرواسـي فتثبت في الأرض، ستحلق الطيور المحبة حقًّا كبرت أجنحتها أم صغرت حتى يلفها ضوء القمر.

(يختفي الصوت، فيعود السكون والظلام).

***

وكأنني أصحو مسـحوقًا بطاحونة من كوابيـس ثقيلة، مهيأً لفزع عظيم، أخاف من كل شيء يحيطني، من السيدة وهي تجرجر نفسي من خلفها، ومن السـائق وهو يُضمر شرًّا لا تفسير له سوى أنه سائق ومتحكـم، ومن الأربعـة المعممين وهم لا يعرفون شـيئًا عما يدور مـن حولهم، ومن تلك الطريق التي لـم تزل تلقي بعراقيلها في وجه قدميّ، حتى أنني لا أكاد أعي شيئًا على حقيقته.

مُطَوَّق أنا بالسلاسل، والجمر يرعى من تحتي.

أخرجت علبة سجائري وأخذت منها واحدة، أشعلت عود الثقاب فكان اشتعاله ضعيفًا، واهنًا، لم يستطع الصمود في وجه تيارات الهواء الوالجة إلى بطن السيارة، فأشعلت عودًا آخر، ورحت أنفث دخان سيجارتي في قلق وعصبية، فرغم اختلافي والشاب النحيل منذ بدء تحركنا، وأنه لم يكن صحبة جيدة لي أو لأحد من الركاب إلا أن شعورًا بالأسى قد انتابني من أجله، واضطرب داخلي لدرجة تمنيت معها عمل شيء، لكن شيئًا لم يكن باستطاعتي.

ملأ دخان السيجارة المكان من حولي حتى حجب الرؤية عن عينيّ، حتى النظر إلى السماء لم يكن باستطاعتى، فعلى جانبيّ تقبع السيدة والسائق كأنما ليبعداني عن النوافذ ولا يُتيحا لي غير الرؤية عن بُعد، تلك الرؤية الضبابية من أثر امتلاء المكان بالدخان، ألقيت السيجارة وضربت كفيّ في الهواء أهش سُحب الدخان الكثيفة، وراحت أمل حين رأتني كذلك تمسك طرف فستانها وتُحركه في الهواء كأنما تهش معي، وما زلنا نهش الدخان حتى تلاشى وأصبحت الرؤية ممكنة، إلا أن أثرًا له ظلَّ باقِيًا أمامنا في إصرار، صحيح أنه لا يعوق الرؤية، لكنه لا يجليها أيضًا.

نظرت عن يساري فكانت هناك على البُعد الغائر في الصحراء أضواء كهربائية كثيرة تلمع ويتداخل نورها في الظلام المسيطر،

هـذا مطـار الخارجة الجوي، أعرفه، يقف علـى رأس المدينة حيث الطريق السـريع داخل الصحراء، وأمامي على بُعد أقصر تجسـدت المدينـة لا شـك فيهـا، عبـر أضوائهـا المتفجـرة فـي ظـلام الكون اللانهائي، والكثيرة فـي اختلاف وتداخل، بيد أنها من مكان رؤيتي هـذا المـكان القابع على بُعـد ومن خلال الرؤية التـي يُعكر الدخان صفوهـا بدت صغيرة كأنها نجوم بعيـدة تنبثق في حد الأفق المظلم في سـمائنا الخاويـة، ثم تنمو رويدًا مـع اقتراب السـيارة إليها، وها هي السـيارة تقتـرب حتى أن المدينـة بكل شـوارعها الضيقة وبكل مبانيها الأسمنتية العالية وبيوتها الطينية الواطئة، الفقيرة، بكل ناسها مَـنْ هو خَيِّر منهم ومَنْ هو غيـر ذلك، بكل محالِّها مفتوحةِ الأبواب والمغلقة، بكل سياراتها التي تشق الأحياء في هدوء الليل، بكل آبار مياههـا العذبـة وما نبت فيها من شـجر قليل، تتجسـد أمامي كاملة، كاملة تمامًا، وواضحة في غير سوء.

لعلهـا المـرة الأولى التي تمشـي فيها السـيارة مطمئنـة منذ بدء تحركنـا، وغيـر مترقبة لشـيء جلل يُعكـر صفوها وصفـو أفرادها، وأيضًـا غيـر خائفة مـن الظلام، فهـا هـي المدينة فسـيحة، وها هي المصابيح ترمي ضوءها في حنوٍّ وكرم، فهل يُشعر هذا بارتياح؟!

قد يُشـعر بارتياح، فحين نظرت في ساعتي كانت عقاربها تشير إلـى التاسـعة، بما يعنـي أن الوقت لم يـزل مبكرًا، وقـد أصبحنا في قلب المدينة.

الآن لم يعد أمامنا سوى النزول النهائي.

والذهاب كلٌ في وجهته.

9

يا مدينة كل ما فيها يختلف عما في مدينتي

يا مدينة كل ما فيها عني غريب.

فـي ربوعك المطلة على صحراء الجدب تمتلئ روحي بحسـرة كتلـك التـي أفزعتني فـي بلادي، فسـيحة أنتِ تعجز عـن احتوائك العيـون، ودهشـة تقرع باب عقلي فـي تباين شـوارعك الممتدة من مـاضٍ عتيق إلى حاضر آنـيّ، من دروب مملوءة بروث بهائم، وبول أطفال، يدوِّي في سـكونها نباح كلاب غريبة ونهيق حمير متوحشة، جدرانهـا الطينيـة يعلوهـا غشـاء من تـراب تطايـر مـن دوس أقدام عريضة وحافية كأنما ينقصها الوحل، إلى شـوارع فسـيحة يفرشـها الأسـفلت وتقف علـى جوانبها الأرصفة، تعلوها جدران خرسـانية شـامخة متحدية بحيث تتفتـت الرمال والرياح والشـمس والدخان تحت أقدامها.

فـوق الزمن والتواريخ تراكمت رمالك، جسـدي الممزق يتبعثر فـي ثناياهـا، وتتنازعه غرائب تقاليـد أهلك فيتوه عقلـي، أقول أنتِ الغريبة معرفتي عليكِ حق أنتِ أولى أن تكشـفيه لي، فترتاح نفسي،

وأمشــي في شــوارعكِ مزهوًّا لا تحملني قدمــاي، لكنني أموت، أنا المريض بعينيه، حين تبتســم بنتك الصفراء في وجهي، فتهز بسمتها جدران المستشفى ولا أعرف كيف أرد البسمة؟

وأعـرف أننـي الغريب، معرفتكِ عليّ حق يجب أن أكشـفه لكِ، فأمشــي فـي شــوارعك مترقبًـا متحفزًا، فـي قريتي توزعـت روحي فـي الـدروب والطرقات، تناثـرت كحبيبات من تـراب تفتت تحت حوائط بيوتها الطينية، وانسـكب دمي مسـفوحًا في حُفر الشـوارع، حُفر الشوارع عبأتها البِرَك السوداء كأنما تزاحم ظلمة الليل.

هذا دمي أسود كحياة حييتها مجبرًا، كليل يحيط بي ويحط عليّ بثقل لا قبل لي به.

وهذه رياح عاصفة تحوم بالشــوارع الحزينـة، تطيِّرني من تحت الحوائـط الطينيـة، وتدفعنـي فـي اتجاهـات متقابلـة، هنـاك حيـث اللامنتهـى، وتعـدو بـرك الـدم الأسـود مـن خلفهـا، وتحـط عليها فـي نقطـة التقاء ما تلبـث أن تنفك، وفي عز تشـتتي أتكـوم مخلوقًا أسطوريًّا مكلومًا في أول العشق، جاهلًا في أول المعرفة، ومحرومًا في مواسم التفاح.

مَـنْ قـال إن الليل لباس وقـد كنت مُعَـرًّى، والبـرد يدخلني من نوافذ كثيرة.

فهل تراني أكاشفكِ الآن بسِرِّي، أمارس فيكِ تحققي؟

هذه السـيدة أبتغيها، أراها من نوع خاص، لها قلب له أن يذوب فـي العطاء إلى درجـة التماهي، إن كل الشـياطين غيـر المرئية التي حاولـت، ولـم تزل، إغراءها في دأب لا ينفك يجرجرها نحو المنع، قـد تعبت، فقـدت قدرتها علـى النفاذ إلـى قلب تماهى فـي العطاء فأصبح عطاءً خالصًا، إني أراها تُقبل عليّ فيما ابتعدت كل الشياطين تجرجر معصية المنع وحدها.

فهل أرى إقبالي عليكِ كإقبالها عليّ؟!

هـذه أنتِ، لا شـياطين في سـمائك، وفي أرضك تلـوح الراحة والأمـن، وفـي موقـف سـياراتك، ذلك الـذي يحضننـا الآن، غرفة صغيـرة تقبع في آخـره إلى جوار مكان رسـو السـيارة، مفتوح بابها عن آخره وباتساعه يسقط ضوء كهربائي أصفر انعكستْ ظلاله على أرض موقفك ومؤخرة السـيارة، ظهر ذو الوجـه الأصفر الرفيع من خلاله وهو يجلس على كرسي حديدي قديم خلف منضدة حديدية أيضًا وصغيرة، هـو رجلك وهو عامل الكارتة في موقفك، بدا ذلك واضحًـا من حجم الأوراق الصغيرة المنسـقة في يده، هبط السـائق متجهًا صوب الغرفة الصغيرة، كان يريد إثبات وقت وصول سيارته ليحتفظ لها بدور وسـط السـيارات العائدة في الصباح إلى أسيوط، رجلك، عامل الكارتة، لما رآه متجهًا صوبه هبَّ واقفًا خلف منضدته

الصغيرة، وتفحصه بنظرة طويلة ومتأملة، من قمة رأسه حتى حذاء قدميه الأسود الذي يميل الآن إلى البياض من أثر غبار الطريق، بدا كأنه لم يكن ينتظر قدوم سيارات أخرى، فكل عرباتكِ راسية أمامه والوقت يدخل سريعًا في الليل، وبعد الثامنة مساء لا تأتي السيارات أبدًا، إذ يعرف أنه حتى سياراتك إن فاتتها الثامنة مساء فإنها تُفضل مكوث الليل في أسيوط، ولا تبرحها إلا في الصباح.

إذًا فالرجل غريب!

هذا ما أوحت به نظرة رجلك للسائق الذي بدا متحفزًا في اتجاهه صوب الغرفة، كان يعرف جيدًا أن المكان ليس مكانه، أن الاحتفاظ بدور له في العودة ليس من حقه، لكنه في اتجاهه الواثق هذا بدا كأنه يعرف أيضًا كيفية التعامل معه.

فهل تقدرين على العطاء؟

وإذ يُلقي السائق تحية المساء، يقول رجلك:

- أنت غريب؟

أطرق السائق في استحياء مصطنع، ودل منظره على أنه يفكر، إذ ضرب يده في جيبه وأخرج نقودًا لمحتها من مكاني في المقعد الأمامي، كانت أكثر من أن يدفعها سائق من أصحابك، ودخل الغرفة، صحيح أن بابها ظل مواربًا، لكن الاثنين اختفيا في ركنها الذي لا يبين.

حينئـذ بدأ الـركاب يتململون فـي أماكنهم للنـزول، وتجمهروا إلى جوار السـيارة في انتظار السائق، وكنت أنا وأمل ما نزال نجلس فـي مكاننا، كنـتُ أُخرج نقـودي وأعد علـى قدر أجـرة الطريق لما شـعرتُ بكفها في كفـي، وهي تهز يدي مؤكدة، وتُلقـي بنقود كثيرة تكفي لأُجرتها وأُجرتي معًا، هبطتْ من السـيارة وأشارتْ إليّ، فهل ترينهـا جميلة كما أراها إلى جوار بقية الركاب؟ صرنا جميعنا ننتظر خروج السـائق من عند رجلك عامل الكارتـة، وها هو يخرج لأول مرة مبتسـمًا، اتجه صوبنا فتحلقنا من حوله، وإذ يبدو الارتياح على وجهه يقول:

- حمدًا لله على السلامة يا جماعة.

الآن لم تعد ثمة صلة تربطنا به أو بالسيارة، فتفرَّق الجمع.

رأيته يركب سيارته ويرتكن بها خلف السيارات المنتظمة.

رأيـت الأربعة المعممين يقتحمون ميدان «الشـعلة» ويتجهون جنوبًا أيضًا صوب حي «السبط الجنوبي» .

رأيت بقية الركاب يذوبون وسط الزحام الذي يملأ ميدانك حتى هذه الساعة.

وأرجـأتُ السـيدة فـي أرضـك أن تنتظرني، فرضيـتْ عن طيب خاطر.

جميلة أنتِ.

كأنكِ لستِ من بلادنا، فالواحد يستطيع في شوارعك الركض إلى آخر الليل بغير أوراق يضعها في جيبه ليثبت بها شخصيته، ويتحسسها بكلتا يديه مخافة أن ينسى أو أن تضيع، يركض أو يمشي بين الناس دون أن يسأل أحد عنه، أو ينظره منتقدًا مشيته وملبسه ووجهته، ويذهب إلى بيت فتاته يسأل عنها أهلها، يقعد إليها في مشهد منهم أو غير مشهد، وإن شاء يأخذها في طرقاتك الفسيحة، ويعودا متى شاءا.

جميلة أنتِ.

ما أشد اختلافك عن بلادنا.

مر وقت قصير على وقوفي وأمل في أرض الموقف، تخللته غيوم من الخجل وقلة الحيلة وجفاف التجربة، وفي سمائه خيم صمت كان في مبدئه حلوًا كأول العلاقة، كأول الشغف، لكنه طال ومُطَّ فكشف عن سماء خاوية، بحيث لم يعد أمامنا سوى مغادرة المكان، لكن العيون أبت إلا أن تُعيد اكتشاف ما سبق لها رؤيته بنظرات قلب وليد.

ربما لأول مرة منذ بدء التحرك تتبدى واقفة أمامي لفترة طويلة، شعور مفاجئ بالسعادة اجتاحني وأنا أرى جسدها البض في فستانه الأسود ناعم الملمس، هو الآن في اتساع الكون، يبدو حولها

فضفاضًا وهي تسوي طرحتها السوداء في سماء شعرها الحرير، كأنما لتُحدد معالم وجه العالم، الرطوبة التي انتابت جو الصحراء مع دخول الليل هدأت ثورة ملامحها، وكانت في حرارة الشمس حمراء، ملتهبة، يضرب الدم فيها بقوة وعنف، فهدأت روحها أيضًا، وبدا وجهها الصغير الأبيض رفيع المعالم، متسقًا وظاهرًا، الأحمر لون قميصها التحتي اختفى مع ضوء شمس النهار، تاركًا الفستان الأسود الشفيف، في الليل كأنه يغطيها كلها، وكأنها في الليل سيدة أخرى، أخذني التحديق فيها ولم أنتبه لإحساسها بتفحصي إلا حين جلجلت سحابة خجلي في السماء فأسقطت مطرها سعالًا مرتفعًا بعض الشيء أصابني رذاذها فأربكني، قلت متلعثمًا.

- والآن إلى أين؟!

ابتسمتْ وقالت.

- لم يزل في الوقت متسع، ولا أريد الذهاب إلى البيت الآن.

وكان لساعتي، التي كانت عقاربها بثَّت السُمَّ في بدني من قبل، أن تسعدني الآن، أن تهبني فرحة أتلذذ بعبيرها ويخترقني عبقها إلى عمق غويط، إذ باعدت بين عقاربها والعاشرة مساء.

- وأنا أيضًا لم يزل أمامي متسع من الوقت.

ابتسمتْ وهزتْ رأسها علامة الموافقة، فاجتاحتني رغبة عارمة في المضي معها إلى مالانهاية.

زحام الميدان الفسيح عجينة لدنة من سيارات كبيرة وصغيرة، وبنايات عالية وواطئة، ودكاكين مفتوحة أبوابها عن آخرها، وناس من دم ولحم وعظام تغطيها ثياب رثة، مهترئة، من شدة الاحتكاك، عبرناه ودخلنا إلى شارع السوق، الأكثر ازدحامًا وضيقًا، كنا نسير في أضواء الليل التي تخرج علينا من الدكاكين وهي تزاحم بعضها على حافتيّ الشارع، ووسط ضجيج الناس الكثيرين الذين يصطدمون بنا، فأبتعد عنها في تفاديهم، لكنها سرعان ما تعود إلى جواري ثانية متأججة النفس، ملهوفة، كأم تخشى أن يتوه منها ولدها في مولد «السيد عبد الرحيم» ، فلم تجد بُدًّا من مسك كفي، فمسكتها ولم أمانع، نظرتْ إليّ وابتسمتْ، فضغطتُ كفها بقوة، وشبكتُ أصابعها في أصابعي حتى اطمأنتْ.

عند نهاية شارع السوق تجلت نهاية الزحام، فسرنا شبه متلاصقين، وانعطفنا يمينًا في شارع ضيق مثله، لكنه ظل يرتفع أمامنا مع ازدياد ولوجنا فيه كأنه امتداد لشارع السوق رغم تعامده عليه، وكانت دكاكين الحلاقة والموبيليا والبقالة تملأه، صغيرة ومتناثرة على امتداده وارتفاعه في وجهينا، كان أقل ازدحامًا وينتهي لمفترق طرق ثلاث، حين بلغناه اتجهنا يسارًا لندخل في «حي المروة» .

لم يكن اتجاهنا اختيارًا وما كنا راغبين، هي سحابة بيضاء، شفافة، تغطي قلبينا في التصاقهما وتُسيِّرنا في الشوارع الواسعة،

كان اتساع الحي أمامنا وشارعه الرئيسي يقسمه كأنما بالعدل مسفلتًا عـن آخره، لكنه غيـر محدد المعالـم، علته على جانبيـه أتربة رملية كثيرة وفاتحة، حالت دون انعكاس الضوء الساقط عليه من مصابيح الأعمدة الممتدة، والمنتشـرة فوق أبـواب البيوت المرصوصة على جانبه الأيسـر في وجه ظلام القبور قدامها، بـدا مطفأً وخاليًا إلا من أرجل قليلة، متباعدة، فسرنا وئيدين إلى غير غاية معلومة، أنظر إليها مبتسـمًا ومترقبًا، وهي ترنو إليّ بطرف عينين فيهما اتسـاع الشـارع، اتسـاع الكون كله، وكنا قد وصلنا إلى منتصف الشارع حين توقفتْ وأشارتْ بيدها.

- هـذا بيـت قريبتـي، نسـتطيع أن نمكث عندهـا قليـلًا، أو كما تشاء.

كان طينيًّا غير مكتمل البناء، بابه الخارجي مغلق، ويعلوه مصباح كهربائـي صغير يميل إلى الاحمرار المخنـوق حتى يكاد ينطفئ، ما أشـبهه بمصباح نقطة مرور «المنيرة» فهل إذا ما وصلناه تقع مفاجأة أخـرى؟ وحانت مني التفاتة حادة نحوها، سـرعان ما خفتْ وطأتها حين رأيت الحيرة تسـعى على وجهها، وتفرشـه كطلاء سـاح على شـفتيّ أنثى بيضـاء، ناعمة، تبغـي الزينة، فتركهمـا غارقتين في لون الـدم، حائـرة كأن لا سـبيل لديها، ومكفهرة الوجه عن ضيق شـديد وهي تقول بحدة كأنما لتدرك سرعة إشارتها.

- لا، يبدو أنني أخطأت بالمجيء إلى هنا.

واستدارت عائدة، فمشيت من خلفها مستفسرًا وملحًّا، حتى جاءني صوتها بعد تردد وهو يقول إن لقريبتها هذه لسانًا طويلًا، وإنها لا ريب ستتقوَّل عليها، وتفضحها في المدينة، وافقتها، فقد كان كل ما أريده هو أن أقضي معها وقتًا أطول، أو حتى الوقت كله، لكن افتضاح الأمر لن يكون مقبولًا بالنسبة لي أيضًا، فلماذا أراني معذبًا بقلبي الطيب، وكأنني أخاف أن أفقد نفسي، صائمًا أطوي صفحاتي القديمة المغبرة بظلمة ليل الكشف، لأستقبل ضوء ما بعد السحر.

في طريق العودة اقترحتْ عليّ المرور عبر الطريق الترابية وسط القبور، قالت:

- لنختصر المسافة.

وكانت الطريق خالية، ومظلمة، بيوت الموتى تُطل على جانبيها في جلال وصمت، ورهبة عظيمة تُسيطر على المكان، خافها الآن الكثيرون فَخَفَّتْ أرجلهم، أو لعلها انعدمتْ تمامًا، لكن هذا الخوف العظيم لم يكن له أن يبلغ نصف رغبتي في التحقق، لقد كنتُ أحس بالتعب يتسلل إلى قدميّ من طول المشي والوقوف، وكانت تنساب حوالينا نسمات هواء مسائية، رطبة، كتلك التي كانت تلاقيني في زمن بعيد مضى، عندما كنت أخرج لصلاة الفجر

فتغريني بالانتعاش، وتلقي في جسدي رعشة تقلقني، حتى أنني أسير خائفًا حتى باب المسجد، وحتى أدخل في الصلاة وأنسى، أخرجتُ سيجارة، ومع اشتعال عود الثقاب خُيل إليّ أن القبور جميعها قد أضيئت، ومن حولي رأيت الموتى يطلون برءوسهم، هم الذين تكشَّفتْ في سمائهم سُحب الغد يشيرون إليّ، أحسست بثقل التعب يزداد، وتمنيت لو لم أكن وافقتها على السير ههنا، فهل زادت داخلي رهبة الموت أم قلت رغبتي؟

طردتُ الخوف الذي يحاول أن يتسلل إليّ من القبور والظلمة الحالكة، ضغطت كفها في كفي، وزدت التصاقًا بها وأنا أتلذذ بامتصاص دخان سيارتي وهو يهبني الدفء، وأنفثه أمامي في قوة محاولًا رؤيته في الظلام، وهالني أن أجد نفسي فجأة، بالضبط عند احتراق مؤخرة السيجارة، ملتصقًا بها لدرجة لم أعرف كيفية الوصول إليها، ذراعي حول كتفيها تضمها إليّ، وذراعها حول خصري، ورأسها الحانية في غلالة الليل قد نامت تمامًا على كتفي ونحن نسير وئيدين كأننا لا نسير، جسدها ناعم، وطري في التصاقه بي، وإحساس الرعشة يزداد تنميله في جسدي، وتتملكني تلك الرغبة الجامحة في تقبيلها، تطلعتُ من حولي فلم أسمع حسًّا، فتجرأتُ وانعطفتُ بها وسط القبور، وهناك في الظلام الذي يملأ الدنيا حولنا، كان قبس من نور يأتي فأفتح له ذراعيّ، ونجم في السماء العالية يحترق في رأس شيطان، وكان لي أن أرى.

رأيت شنطتي الخضراء، متوسطة الحجم، تُلقى على الأرض الترابية فوق رأس الموت.

رأيتها بين ذراعيّ طيعة، متحركة.

ورأيتني أُدخلها في صدري، في زحمة الموت والظلمة والصمت، غير عابئ لشيء، كضرير يتوق إلى الشوف، أو جاهل يتوق إلى المعرفة، وأنا أتلمس بشفتيّ شفتين ممتلئتين شهدًا ودمًا، كان نهداها في صدري وثيرين، وعصارتهما الصافية تبلل فستانها وقميصي، وتسيح على قلبي حارة، دافئة، وهي تغوص في دفء الروح لتغمرني برائحتها الأنثوية، فأذوق وأعرف وأدخل في العشق، أعصرها وأدوس بشفتيّ، وفي فورة النَفَس السُّخن وضغط ذراعيها حول عنقي جاء صوتها كأنما ليعبث بالقلب، أداة الحدس والكشف، يطوحه في السماء العالية، هنالك تحت قبس النور، ويرفعه إلى أعالي سامقة، سامقة بحيث لا تطولها العيون.

- اعتقدت أنك لن تقبلني، لكنك عندما فعلتها اعتقدت أنك لن تتركني أتنفس مرة أخرى.

وإذ تهدأ حركة تنفسنا فلأن القبلة قد انتهت، أو لأنها الآن تهوي إلى الأرض، وأنني أهوي خلفها، ها هي مستوية على ظهرها وممددة بطولها أمامي، شنطتي الخضراء تحت رأسها، وأنا راكع عند قدميها في خشوع، الرجفة في جسدي لا يحسها المصلي في

أكبـر المعابد أو الكنائس أو المسـاجد، فهـذه صلاتي الخاصة، بين يديّ أمل، وفوق القبور النائمة على أهلها، ووسط العتمة المسيطرة على كل الأشـياء، ليس هناك غيرنا ولا حتى الشـيطان، ليس سـوى القمـر في السـماء يُضفي علينا شـفافية تُبين الأشـياء فضية ولامعة، فهل كانت يداي اللتان مسـحتا على سـاقيها، أم هو سحر اللحظة؟! رفعـتْ ركبتيها قليلًا، فارتفع طرف فسـتانها فوق أول فخذيها، فهل كان بريق حُمرة لحم الفخذين ذلك الذي شَعَّ في عينيّ، أم هو القمر اختصني بنوره؟!

أدخلـتُ أصابعـي وئيـدة فـي باطـن قدميهـا المفروشـتين على الأرض، وحركتهـم فـي نعومـة الحبيبـات الترابية الدقيقـة وطراوة قدميهـا، تلـك القشـعريرة التي دغدغت جسـدها كمـا يدغدغ موج البحـر رمـال الشـاطئ ويفتتهـا، جعلتهـا تهـز رأسـها فوق شـنطتي الخضراء، وتصرخ في أهل القبور «إني سعيدة» ويهتز جذعها مرتفعًا في الفضاء، فيصطدم النهدان المحرران تحت الفسـتان الفضفاض، كرتـان من لبن رائب، له خرير موج البحر على الصخور المفروشـة بالطحالب الملساء.

- تعالَ، أنا الآن لك.

لكـن رعشـة عظيمة أصابـت أصابعي، وإغماضه وعـرة أغلقت عينيّ عن الأمل الـذي لاح قريبًا، وهي تحميهما من تراب الأرض،

الذي حركته الريح فصار غبارًا كثيفًا يفض بكارة هدوء الليل، ويقتل في نفسينا لذة التحقق والشهوة العارمة، فنقوم ساخطين.

« بمزيد من القُرب، صرنا حبيبين ولم يكن في نيتي أن أحبها».

وكأنني أراها لأول مرة فأفرك عينيّ، أسمعها لأول مرة فأحشر أصابعي في أذنيّ لأنظفهما جيدًا، كانت فوق رأس القبر، وكان لونها الرمادي قد تغير، زادت حُمرته وجَمُد تحت ضوء القمر بحيث بدا حادًّا كالسيف، لا يُعبر عن غير الجد، تقول دون أن تنظرني إنها كانت ولابد قائمة بهذه الزيارة كي تتأكد من كرهها لأبيها، أمنيتها أن تراه ميتًا، وحكت ربما بمنتهى البساطة كيف كان يضربها، ويسبها وهي الصغيرة، الضعيفة، يملأ وجهها بصاقًا يدعكه بكفيه الكبيرتين، المفرطتين في الكبر، ليبلل به جسدها كله، وفي غمرة الغرق القاسي يصرخ كمجنون.

- عاهرة مثلها، عشرون عامًا لا أعلم شيئًا، وأعلم كل شيء بعد أن تموت، لو لم تمت لقتلتها عشرين مرة، ما أدراني أنكِ ابنتي.

ويتوقف صوته في فورة الغضب، ليتحول إلى حدقتين كبيرتين تسبحان في بحيرة من الدم، وتشكلان وجه شيطان حقيقي يصرخ ويجري، فتقوم، تحمل سنواتها العشر ودموعًا كثيرة، وهناك في ركن الغرفة المظلم، الدفين، تحط اللعنات عليها من كل جانب، تنزوي خائفة، مُكومة، وهي تضم صدرها لفخذيها وتحوطهما

بذراعين مرتعشتين وعواء مجنون، لكنه خوف هين بالنسبة لفزع ظل يصاحبها ليلًا طوال الخمس سنوات التالية، حين يحط الليل، يحط الفزع مثقلًا بظلمة لا تنتهي، دائمًا في أول الليل يختفي مصباح الكيروسين، وعندما الليل يوغل ويُكثر من ظلمته كان وقع أقدام يأتي في ثقل الظلمة، وئيدًا يفتح بابها، فيصر الباب صريرًا يمزق الجسد المترقب ويخلع منها الروح، ثم يَرتد ليصبح الوقع داخلها، يجوس في الظلمة حواليها في مرح إبليسي ساخر ومخيف قبل أن يُطبق عليها في زاوية السرير، تكون قد تكورت حول نفسها، حول روحها، مهابة من شيطان لا تعرفه، ومهابة من السخرية أيضًا، لا شيء غير الصراخ ولا أحد يسمع، وصاحب الوقع الثقيل في الظلام طويل جدًّا، بغير منتهى، وبأطراف كثيرة، جثومه يغطيها، يكتم منها الصرخة والحركة، وهو يعبث بشفتيه ويديه، ليعريها تمامًا وسط المراهقة الطفولية والظلمة والخوف، وهي تحسه عاريًّا بكل السوء، يسد منافذها كأنما ليقتل بداخلها الصرخة التي لم تتعد الشفتين بعد، وليقتل الحركة العاجزة أيضًا، وربما ليقتل بداخلها الخوف ذاته ليعود ثقيلًا كما جاء، جبروتًا ملوثًا بالدم والبصاق، له رائحة كريهة، قالت إنها ستشمها وتعرفها جيدًا فقط حين الموت، فقد كانت رائحته.

في هذا الصباح أخبرها أبوها بنبأ زواجها، وكان كل شيء قد أُعدَّ تمامًا، وكان العريس في مثل عمره أو يكاد، قصيرًا، أسود، له

طلعة العفريت الـذي يخرج من الحواديت القديمة في ظلمة الليل، وقد أسَـرَّ الأب إليه بمشـورة اِتَّبعها، فجاء، لعلِّـي في صدق حديثها رأيتـه يجيء في سـواد الليل وصمته المبجل، فـي نفس الوقع، يكاد يكتسـب نفـس الرائحة، لكنها ظلتْ تقاومه بكل ضعف واستسـلام السـنوات الخمس الفائتة، الثقيلة، حتى أعلن خشوعه واستسلامه، قالت «أصبح طيعًا، وشكلته كرغيف العيش الشمسي النيئ» .

هـي الآن تبكي، ربما تبكي، فلم تكن ثمة دموع، بل نفس النظرة الجامدة، العميقة، التي تحدق في اللاشيء بقسمات حادة وثاقبة.

- أنا التي دعوته للركوب فوق الحائط.

وسـكتتْ، أحسسـتُ أنهـا لن تنطـق بكلمـة واحدة، ومـا كانت لتقدر، لكنني سألتها.

- ثم ماذا؟!

وعرفتُ أن سؤالي غبي.

إذ أحسستها تريـد القـول، لـم يكـن بوسـعي عمل شـيء آخر، فوقوعـه وعجزه تحرر لي، إقعاد قدميه انطلاقة لرجليّ كي تسـبقان الريـح التي هلَّتْ مع إشـراقة النهار، وتحديًا لرائحـة أجدها في كل شوارع القرية التي لم أطأها وأنا صغيرة.

قالت، هكذا كان بعض التحرر، بعض السفر، الإسراء في الأرض شطر الحرية الكاملة، ولقياك الآن أبتغيها الشطر الآخر، لكنك مثلي لم تزل تهوى الأسئلة الغبية، اندماج روحينا لعله محاولة الكشف، ومطية المعراج لأرض القمر.

وكأنها تريد أن تقول، حاولت أن أحبه، أتخذه رجلًا لي، حائطًا أستند إليه في وجه سنين مضنية، لكنني لُذت برائحة التراب في مواجهة رائحة الموت، فقد كان يمتلك نفس الشكل، نفس الوطأة الثقيلة، ويأتي في سواد الليل.

وفي نفسي قلت لها، إن أباها أيضًا كان يخافها بكل القدر الذي أخافها به، إن كل إنسان، مهما تَدَّنى شأنه، له أن يُخيف إنسانًا آخر، وكل إنسان مهما بلغ طغيانه وجبروته له أن يهاب إنسانًا آخر، حتى «هتلر» ألم يضربه أبوه صغيرًا فخاف، أو عنفته أمه فهلع قلبه.

ألم يأتِ حلمه كابوسًا في يوم ما ليهزه؟ ألم يخشَ الهزيمة ففر منها للموت، وهو يفر من الموت إلى الهزيمة حتى الآن؟

في نفسي كنت أريد قول أشياء كثيرة، لكنني صمتُّ، لأنني الآن فقط قطعت على نفسي عهدًا بعدم الكذب، ما الذي يجعلني أستخلص عِبرًا وأحكامًا أهدى بها، بعض المعرفة التي تعتمد على التحايل وتسميه استنتاجًا، وهو في حقيقته لا يعدو إلا أن يكون لويًا لذراع الحقيقة.

مـا الذي يدفعنـي لذلك وهـذه الحقيقـة تَمْثُل أمامـي بلا ريب، وبكل الصدق.

في نفسي ما كنت أدري ما أقول، لكنها قالت:

- لا شيء.

وحاولتْ أن تبتسم.

وإذ أطلـب المكـوث معها هذه الليلة، فلأني نسـيت كل شـيء، ولم يعد يهمني غيرها.

- نعم، ستبيت عندي الليلة.

ولـم أسأل عن شيء، فقد بدت فرحتي أكبر من كل الأشياء.

وعدنـا للسـير إلـى غايتنـا علـى الطريـق الترابية وسـط القبور، عنـد نهايتها واجهنـا مبنى «المعهد الديني» موغـلًا في الزمن، بدت ضخامتـه مهيبـة وهو يجثـم على رأس القبـور، ومن حولـه البيوت صغيرة وتافهة، لكنه بدا مظلمًا في الليل، ومتسربلا بحكايات عظيمة تناقلتهـا الأجيال حتـى أصبحت حقيقـة واقعة امتلكـت أرواحهم، ولفَّتهـم حتى داروا في فلكها، وكان بيتهـا قريبًا، فخلف هذا المبنى الجليـل يرقد شـارع صغير، بمجـرد أن عبرناه هَلَّ البيـت ليواجهنا، صحيح أنه بدا صغيرًا ومكونًا من دور أرضي فقط، لكنه بدا سـعيدًا جـدًّا فـي أنواره الجمـة التي كانـت تسـتقبلنا بترحاب شـديد، وبدا

مُهَنْدَسًــا أيضًا كأنما شُــيِّد بأصابع فنان يعرف معنــى الحب، ومعنى العشــق، وقفنا أمــام الباب الخارجي، وكنت أبــدو من ورائها كطفل مطيـع في يد أم تعرف معنى الطريق، وليس كيفية العبور من خلالها فقط، وقبل أن تعمل المفتاح في الباب استدارت إليّ في حدَّة:

- أنت ابن خالتي وفقط.

واستدارت جهة الباب لتفتحه، وتوقفت كأنها تتذكر شيئًا، وهي تلتفت إليّ ثانية.

- اتركني أنا أتكلم، أنت تُسلم وفقط.

وحين كان طائر الشــك يستيقظ في عشه ويفرد جناحيه استعدادًا للطيران، ابتسمتُ ابتسامة الذي يريد أن يطمئن نفسه وقلتُ.

- حاضر.

بادلتني الابتســامة، نفس الابتســامة، والتفتت إلى الباب، لتفتحه هذه المرة.

مـر وقت قبل أن نشــعر بدبيــب حركة داخل البيــت المظلم، إلى جوار الباب الخارجــي، الموصد الآن في ظهرينا، أضاءتْ مصباحًا صغيرًا، فعلا معه دبيب الحركة، وسمعنا خبطة لرجل واهنة تتعثر في عجلات حديدية، صغيرة، وهــي تحتك بالأرض، وصوت خافت،

وضعيف، بدا جليًّا أن صاحبته امرأة عجوز، لكنه ارتفع ليسأل عن الطارق؟!

يا خالتها

يا أمي

مَنْ يطرق في هذه الساعة بابنا؟

من يفتح عين بيتنا على صخب الشوارع؟

يضيء في هدأة الليل أنواره الساكنة

يُؤجج ألباب أهله المرتاحة منذ أمد بعيد

بعيد يا أمي

حتى لا يكاد يُرى

حتى اكتسب قداسة يخشى الناس هتكها

وقد امتلكتْ منهم الأرواح

مَنْ يُزعج أرضه فيرجها

وسماءه فيُمطرها

ويخلق مثل طوفان نوح؟

إنه بيتنا القديم يا أمي

كلمتنا القديمة

مَنْ ذلك الذي يبغي أن يهدمه؟

وكل حجته

أن يعيد بناء العالم فوق الأرض

كي يراه حق الرؤية التي تمنحه مكانة

تعدل وضع الجبهة في الوجه

وضع الوجه في القمر

وضع القمر في السماء

وأن يتحقق.

10

حيـن أُغلق الباب الخارجي كان هناك فـي الجهة المقابلة حركة يتخبط دبيبها في ظـلام البيت، بدت وكأنها صرير عجلات حديدية تمشـي علـى الأرض وتصطدم بحاجـز صلد وقوي، بـدا مفزعًا في الظلمـة، وحيـن غمرنـا الضـوء الأبيض أطلـت علينا امـرأة عجوز بوجـه قديـم لا يخلـو من أثـر النعاس، كانـت تقف إلى جـوار باب لطُرقـة مقابلة، هناك في آخر صالة ظهرتْ فسـيحة إثر انهمار الضوء الأبيـض عليها، هي التي أزاحت سـتائرها واسـتكانت تفرك عينيها في مواجهتنا، وبصوت مهتز يحاول أن يعلو قليلًا راحت تسـأل عن القادم، لكنه الآن خلف عينين تفتحتا متحررتين من طوق النوم، بدا ثابتًا في هتافه وقد استوضح القادمة.

- ست أمل.

وفردت ذراعيها تجري في حضنها.

حيـن غمرنـا الضـوء الأبيض بـدا مدخل البيـت رطبًـا وظليلًا، تغمـره أضواء كثيـرة، اختلفت ألوانها وهي تتفتح متتابعة فيما يُشـبه التآمـر، تفرشـه أرضيـة مـن رخام أملـس عليهـا أغطية مـن صوف

غزير، لكنه سَفُل من كثرة الدوس عليه، وتآكلت أطرافه المترامية في أركان الصالة، وبالرغم من ذلك ظل يفوح بأريج رائحة طيبة، أشمها فينتعش جسدي وتطمئن نفسي، وتسحبني أمل بأصابع من لحم طري، يدها التي تقبض على يدي لتدعوني للدخول تنفلت الآن لتلتف على ظهر العجوز في مقابلة حضنها الحار، الدافئ في خريف الليل.

حين غمرنا الضوء الأبيض كان وجه العجوز في كتف السيدة يُقبلها ويحمد عودتها السالمة، ويندس في عنقها معبأ بنظرة الشوق، ومتهللًا بفرح عظيم، انزاح مع رؤيتي تاركًا نظرة المباغتة تحتله، لتجعله مكفهرًا، مقطب الجبين، عينا عجوز ماكرة ملأته بحدقتين مفرطتين في الدهشة واللؤم، أوقفتا جملتها الحميمة «نورتي بيتك ....» فوق لسانها، وأنهتا دفء حضنها لتسألا في صمت عني، مَنْ أكون؟

وهل أملك الآن نفسي كي أجيب سؤالك الصامت؟ وهو يجرني إلى عمق لا قرار له، وتلك تسحبني إلى حيث لا أعرف ماهية لما أُقدم عليه، حيث فيض أنوارها الجمة، الغزيرة، يُعمي عينَيْ طفل خرج في ظلمة الليل، على حين غفلة من أهله، إلى أساطير قرية غائرة، قديمة، جُرأتها في مثل ضوضاء مولد «السيد عبد الرحيم» وهي تصم الآذان حتى لا يسمع أهل المولد أذان صاحب المسجد الملتفين من حوله.

مَنْ أكون؟!

وكيف أرد سؤالك؟ وأنا رغبة التحقق الجارفة، أمنية امتلاك الحلم، في سبيلها أمد يديّ إلى أعالٍ سامقة، سموقها شامخ، وأنا أحاول مطاولة السماء، وأمد عينيّ الواهنتين، أنا المُعدم، أتحسس نعيم جنتها وهي تُدخلني فيه فتهفو نفسي وتتدنى، تهفو للتحقق، وتتدنى من سؤال حائر، هل أقدر؟

مَنْ أكون؟ وكيف أرد سؤالك؟

لا أعرف، لا جواب عندي، فهل لكِ يا أمل أن تنقذيني؟ وقد وصلك سؤالها فاستقبلتِه برباطة جأش تدارين بها رعشة خفيفة، أحسستها وهي تسري في دمك، حتى امتلاك القلب.

قالت أمل وهي تشير إليّ.

- محمد، ابن خالتي.

وفي بطء قالت العجوز.

-اتفضلوا.

كنا نقف وسط ما يُشبه السقيفة في بيوتنا الطينية، صالة فسيحة لكنها نظيفة، خلف مدخل البيت، فارغة إلا من أثاث قليل وغالٍ، بضعة كراسي وثيرة ومنفردة تناثرت في أركانها، كأنما لتنم عن وحدة ذاتية لا دخل لأحد بها، ولا حتى بمجرد السؤال، وكنبة عريضة، رخوة، أُعدت لتستقبل الزائرين أسفل جدار في مواجهة

الباب الخارجي، عن يمينها تمتد طُرقة صغيرة خلف ستائر عالية، كأنما باب كهف يوصل إلى بطن البيت، وبطن البيت مليء بغرف كثيرة خلف أبواب لونها غامق كالليل الذي تركناه من خلفنا، وموصدة كعيون مغمضة في وجه عينيّ الجاحظتين على الفضول، والموزعتين في فراغ جُمِعَ وكُدِّسَ في الصالة الفسيحة، طويلًا يمتد إلى أبعاد مترامية لأربعة جدارن بيضاء، متصلة، يحيطونه ويلمُّون شتات الضوء الذي يحاول أن يغمرها، رغم كثرته وتنوعه بدا واهنًا، وعاجزًا عن ملاحقة طول الفراغ وامتداده، داخلني شعور مفاجئ بالضيق، ولم أرتح لا لأمل، ولا للمرأة العجوز.

ونستوي على الكنبة منهكين من التعب وتآمر الريح علينا، ظلمة الخارج وأنفاس أهل القبور داخلنا لا يزالان يعبثان بكل مفاصل جسدينا وعضلاتهما، يشعرانا بتعب ثقيل، رغم تبدده السارح في نعومة الكنبة وطراوتها إلا أن أثرًا واضحًا ظل باقيًا له.

وتظل المرأة العجوز على حالها، تقف فوق رأسينا كأنما تُصر على فعل الوقوف، وكأنما في وقوفها مراقبة لنا، وملاحظة لكل حركة أو نفس، ترديدًا مزعجًا لم يزل يطرح سؤالها الذي لا جواب له.

- مَنْ أكون؟

تلحظنا وتظل صامتة، منتصبة، ضئيلة في فراغ الصالة، وشبحًا في ضوئها العاجز الذي يُطل من أزمان تغور في القِدَم، بينما يبدو حالنا في دائرة إدراكه أسطورة وخيال.

مـر الوقت بطيئًا، صامتًا، كأن طائرًا ضخمًا يشـتد في حطه عليّ، عينـا أمـل تائهتان وغير موجهتين لشـيء بعينه، كأنهمـا حملتا مهمة إخـراج التعب مـن جسـدها وتوزيعه في فـراغ البيت الكبيـر، فهما تنـوءان بمهمتهمـا الثقيلـة ولا تلتفتان إلـيّ، فلا أجد مَـنْ ينقذني أو يرشدني، حتى شعرت بحرج شديد ولم أعرف شيئًا أقوله أو أعمله، غيـوم مـن صمـت مهيب خيمـت، وفرشـت ظلالهـا الداكنـة على امتداد طول الفراغ والأشـياء، لم يهتك ماءها غير نداء خافت، خرج بصعوبة من بطن البيت وهو يتحسـس آذاننا لينبهنا إلى وجوده، أنّى لـه أن ينبعث من هناك؟ يختـرق العيون المقفلة، الغامقة، ينفلت من بـاب الكهـف القائم على أغـوار لا تنتهي، لكنه أتـى على كل حال، تآمـرت معه الأبـواب الموصدة، واتسـعت في وجهـه عين الكهف لينقـذف انقذافتـه الواهنـة هذه، فيوشـوش آذاننا، لكنـه رغم ضعفه الظاهر هذا بدا وكأنه يُنبه كل جسـد أمل وحواسـها، فتتلفت مسرعة كأنمـا تذكرت، تمد بصرها وقد ارتاح في بطـن البيت، وتعود لتردَّه على المرأة العجوز في سؤال حاد، وغاضب.

- هو الحاج صاحي؟!

ويأتيـان، صوت العجوز وعيناهـا الماكرتان، يردان وكأن غيوم الصمت الداكنة تتفتت فوق رأسها غيثًا ونجاة وفرحًا في سيدتها.

- نعم، استيقظ على صوت الباب الكبير وهو ينفتح.

- والولد؟

- نائم.

ويتكور وجهها غضبًا ساخطًا كما كان بعد هبوب الريح.

- طيب روحي شوفي الحاج.

وتروح العجوز لترى حاجَّها، فهل انسحبت معها سحابات الصمت؟

أشعر أننا، منذ ولوجنا من هذا الباب الخارجي الكبير، وكأننا لم نعد كما كنا من قبل، رغم أنه كان يلوح لنا بالتحقق، إلا أنه الآن يطمس ككابوس حُمِّل كل أوجاع الخليقة وأوهامها منذ بدء النشأة.

قالت «أنت ابن خالتي وفقط، أُترك الحديث لي أنا» لكنها لم تنطق لي بكلمة من بعدها، ولا حتى لحظة من طرف عينيها الثاقبتين.

أين ساعات الطريق التي كانت تطوحنا السيارة فيها كأنما كيف نشاء؟

أين القبور، وقد كنا في القُرب منها قاب قوسين أو أدنى من معرفة وجودنا؟

لماذا هي الآن صامتة؟!

ليس سوى الصمت، والنظرة الغائرة ما يفوحان منها، أشمهما كأنما ليحذراني من مخالفة القول الحكيم، وهما يحكمان عليّ بالطفولة، مجرد طفل مطيع خلف أم يُفترض امتلاكها المعرفة.

ومن بـاب الكهف، باب مؤخرة تقذفنا بمـا يحتوي بطن منتفخ، تجيء المـرأة العجوز مرة أخرى، يسـبقها صرير عجلات حديدية، قاطعًا صوت احتكاكها بسجاد الأرض، لكرسي متحرك يقبع الحاج مـن فوقه، فخذاه ملفوفتان ببطانية صغيـرة فوق جلباب أبيض، وقد بـدا نصفه الأعلى، الظاهـر، الفَتِيُّ، قائمًا بعض الشـيء، حين دخلا الصالة غمرهما الضوء العاجز السـاقط من سمائها القصيرة، فبدونا رجلًا وامرأةً في مواجهة رجل قعيد وامرأة عجوز.

شـعور صغير بالسـعادة دخلني، جعلني أتقبل لحظات التعارف القصيـر بصدر رحـب، توَّاق للنصـر، وأمل تعرِّفنـا بكلمات تحمل كذبهـا السـاري مفعولـه الآن كخـدر يقتحمنـا حتـى الثمالـة، حتى أنـا مَنْ أدفن السـر معهـا كاد الصـدق بكلماتها أن يدخلنـي فأقتنع، والرجـل يُخَـدَّر ويقبـل، كأن ليـس أمامه غيـر القبول، كأن سـيادته انتفـت في وجود سـيدته، ومع ذلك فثمة نداء معلـق في عقله، لعله ينبعـث من قدميه السـاكنتين وهو يـداوم النظر إليهمـا كقِبلة توجهه لصلاة لا تسـبيح فيهـا بحمد أمل، كفه الكبيرة، الخشـنة من قبضتها علـى عجلات الكرسـي، مهتزة فـي كفي، كأنها لا تريـد أن تُرى في سـلامها عليّ، ولا أن تستسـلم له أيضًا، فتنسحب بسرعة لترد عينيه ربما بنفس سـؤال المـرأة العجوز، فتخيم سـحابات أخرى صامتة، وصلدة، وداكنة، ويشملنا الحرج.

المرأة العجوز قطعت السكون المسيطر حين هَبَّت واقفة.

- أروح أعمل الشاي.

ومتى توارت داخل الطُرقة، جاء صوت الرجل القعيد.

-هو الأستاذ محمد ساكن في مدينة الخارجة؟

سارعت السيدة ترد، حتى قبل أن أفكر في سؤاله.

- لا، ساكن في قنا، لكنه مجند هنا وقارب على الانتهاء.

سَكَتَ على مضض، وراح يجري من خلف نظراته التي تاهت في فراغ الصالة الفسيح، أصابع يديه على حافتيّ الكرسي فوق فخذيه تشابكت، وراح إبهاماهما يدوران حول نفسيهما في حركة عصبية مع جثوم غيوم الصمت وانحسارها، وتأتي المرأة العجوز، أحسها خلف ستائر باب الكهف تقذف بأذنيها إلينا، وفي ثقة تردف السيدة كأنما لتقطع حبائل الشك التي تراود قلبه، أو تفتت نداءات خافتة تنبعث في عقله، أو تُقر وحيًا وليس لعبد مثله أن يرد تعاليم إلهة الجسد والتحقق والعطاء.

- فاكر خالتي يا حاج؟ هذا ابنها، قابلته صدفة في السيارة، السنون الطويلة تمر، لكن الصدفة تحدث أيضًا!

تمتم الرجل كأنه مرغم. «طبعًا.. طبعًا» وحكَّ رأسه وهو ينظر الأرض، على حين ظلت المرأة العجوز خلف الستائر الداكنة تحملق فينا، كأنها لا تفهم شيئًا مما يدور على الإطلاق، أو تفهم كل شيء.

مـرَّت لحظـة صمت أخرى، لـم يكـن هادئًا فقد كان يضطرب داخلنـا – جميعًا – بأحاسـيس شـديدة ومتضاربـة ومتناقضة، كنت قلقًا إلى مدى بعيد، يناوشـني شـعور مؤكد بأن الرجل القعيد يشك فـي رواية قُربتي لها، أو أنه لا يريد أن يُدخلها عقله، عرفتُ ذلك من أسـئلة كثيرة اختصَّني بها، ونظرات حادة، متشككة، لم يزل يسلطها على سيدته منذ دخوله علينا.

فهل عرفها المعرفة الحقة التي تؤهله للشك؟

أم استحال الشك طائرًا يزاحم الضيق والصمت؟

أمل لا تزال صامته وهي تقبع إلى جواري، هدوؤها يقتلني، وغيظ شديد يملأ قلبي منها، فيغلي دمي، بينما تدفعه الرغبة للمسها.

يا للمسة جسدها ياالله!

مـا زلـت أذكرها تميل علـيّ وأميل عليهـا، وعليل الهـواء يُميلنا في الهوى، هواء صحرائك الواسـعة في كونك الواسع الذي لا حدَّ للنفـاذ منه، وهـوى محبتك يتجلى في اصطدام الجسـدين وتهافت الروحين واشـتياق الأنفاس الساخنة، لا حد لاحتوائه، فنتعارف في سـهولة يَسَّـرتها لنـا، تحكي مكنون قلبهـا كأنما لتتطهر مـن زمن مرَّ على جسـدها فوسخه، لتعود من بعده في براءة طفلة تُبْكِر في فورة، فيطلـع عليّ نهداها من تحت فسـتانها الفضفـاض إذ تلصقه عليهما وتكومـه تحتها كأنـي لا أرى، أو لكأني في مثل زمنهـا الجديد بكرًا

لم تدنس قلبه رياح البنات المتضاربة، ولم تحرق شفاههن شفتيه، ولما أحسَّتْ طيب فمي وخلوَّه من الرائحة أعطتني فمها كله لأحرقه في شفتيّ، هكذا والموتى يشهدون، فحرقتُ وذقتُ وعرفتُ كيف تكون النار بردًا وسلامًا، وكيف تصل المحبة حد الجنون.

ولقد دعتني للمبيت عندها، هذا سريري بارد فأدفئه باشتعالك فيّ، فما كدنا ندخل حتى أصابها الثلج فأضحتْ في برودته، وأصابني فزاد اشتعالي.

فهل لي الآن أن أنقضَّ عليها أمام عينيه وليكن ما يكون؟

أكاد، غير أن شيئًا ما بداخلي يُحجمني في اللحظة الأخيرة، وعرفتُ على امتداد الجلسة بيننا أنني حتى لو فعلت، فإن قدرًا يسيرًا من المتعة لن يتحقق، فقد انفرط شرط القبول.

اتكأتْ بظهرها إلى الحائط، رفعتْ ساقيها فوق الكنبة وأحاطتهما بذراعين ثابتتين مشبوكتي الأصابع، عيناها تنتقلان بين الرجل والمرأة العجوز في سرعة، تحكي للرجل وتقطع الحكي بنظراتها الثاقبة التي توجهها لأركان البيت، وكيف أنها مشتاقة إليه، حتى خّيل إليَّ أنني أسمع دقات قلبها متلاحقة، وأحسها إلى جواري مضطربة، لكنها واعية لكل كلمة تنطقها، ومترقبة لكل رد فعل يبدو على وجهه، فقد بدا عليها أيضًا أنها تعرفه تمام المعرفة التي تؤهلها لرد كل ذرة شك تنمو في عقله.

وأتت العجوز تحمل صينية الشـاي، عليها ثلاثة أكواب وضعتها على منضدة صغيرة قدامنا، ثم مارسـت فعل الوقوف فوق رءوسـنا كأنها تنتظر أمرًا آخر، الرجل القعيد اختصني بنظرته وحديثه.

- اشرب الشاي.

وتناول كوبه، ورحنا جميعًا نحتسـي الشـاي في صمت، وما من شيء جميل لاح في الأفق.

يبـدو أنـه كان من المهم قبل رغبة أمل فـي بقائي معها، أن تكون أكثر سـيطرة أو حزمًا أو إقناعًا للرجـل القعيد، فقد كان من الصعب عليـه أن يكون أقل تشـككًا، ولا شـك أنـه قبل رغبتي الشـديدة في نيلهـا، كان مـن الواجب علـيّ أولًا امتلاك المكان الـذي يقدر على أن يخلصنا من الوحدة، ليحتوينا من بعد، هكذا كان يجب أن يكون الأمر، دون اللجوء إلى كذب أو تحايل.

كانت أكواب الشـاي قـد فرغت تمامًا قبل أن أشـكره وأنظر في سـاعتي، لكننـي لـم ألمحها فقـد كانت أمل أسـرع منـي وهي تنظر للمرأة العجوز كأنما تصدر أمرًا.

- روحي نظفي غرفة الضيوف.

فترد العجوز الماكرة.

- نظيفة ياست أمل.

فأعـرف أن حلمي قـد تفتت تحت وطأة نظـرات الرجل القعيد، تمامًا كما تفتت من قبل تحت وطأة الرجل الأعمى، وتعاليم القبيلة، وانصياع الأهل لها، فهل يُجدى البقاء؟

ها هي أمل تصدر أمرها الأخير.

- هيا بنا لننام.

يا الريح، يا الغبار، هل يُجدى البقاء حقًّا.

هـا هـو طائـر يـرف بجناحيـن صغيريـن في وجـه ريـح عاصفة وضباب، يتطلع للسماء بنظرة واجمة، فأحس الشيخوخة في بدني، وأشعر كأن بدني ينهار تمامًا تحت ثقل ظلمة لا قِبَل لي بها.

أيها الوجه في القمر

خفِّف انقباض يديك على عنقي

لماذا تخنقني كل هذا الخنق

كيف لي بالتحقق؟

وأنت تحجب الحلم عني

ولا تمنحه إلا من خلال ورقة مصقولة، موثقة

الورقة يا سيدي لها أشياء كثيرة توجبها

للورقة ثمن

للثقل ثمن

وللتوثيق ثمن

وما أنا فيه وأنت تعلمه

لا يتيح لي ذلك

فلماذا في تلك اللحظة بالذات

تبدو بعيدًا؟

كيف أنجو بنفسي؟

من حلقات حديدية محكمة تحيطني

حب لا يُغْتَفر

رغبة تأكل الأحشاء، تحرقها

أوامر تصدع جدار النفس

افعل / لا تفعل

عندما خرجتُ من بيتي الأول مرغمًا

وقطعتُ تلك المسافات البعيدة

فوق التراب والرمل

تحت النور والظلام

عبر أفئدة وصناديق ضيقة

أحبو وأسرع

أسير وأتلكأ في أوتاد الشوك الجاثم التليد

بعينين لا تقدران على الرؤية الكاملة

وتفزعان لعواء الذئاب البعيد

ونباح الكلاب الجارحة التي تحرس الشوارع

لم أكن أبغي الخطأ في أحد بعينه

أو الخطأ بعينه

فقط

سوَّيتُ الأرض للزرع

مهَّدتُ السماء بالماء / السحاب

شققتُ المصارف والترع والأنهار

فجَّرتُ براكين الكلمات القديمة

في أرؤس الباكين على الأطلال الغابرة

كي أرى العالم

حق الرؤية التي تمنحني مكانة

تعدل وضع الجبهة في الوجه

وضع الوجه في القمر

وضع القمر في السماء

ولا أحتمي بأحد من أفراد القبيلة

فلماذا رميتني في حضن أمل وتركتها تنسل من حولي؟ أسرابًا كانت، أم حفنة من ماء عبّأتْ كفًا أصابعها مفتوحة، فما لبثت فيها غير قليل..؟

ها أنتَ تراني.

أُطلُّ عليك من غرفة جدرانها عالية، وسماؤها بعيدة، وبابها موصد على أرضها المكسوة بالسجاد الفخيم، وقد تحول إلى شوك يتوق لباطن قدميَّ بمجرد أن خلعتُ نعليّ، رءوسه المدببة، الرفيعة، تنغرس فيهما كأنما لتطردني، وكأنني ضيف غير مرغوب فيه، أو لكأني رسول حُمِّل تعاليم المحبة لأرض ليست أرضه، فأدمى أهلها قدميه طعنًا في المحبة، وحين سجَّيت جسدي المتعب على سريرها الفاخر استقبلني بالكوابيس، رأيت شياطين الجن وشياطين الإنس، وما رأيت خيرًا قط، وشجرًا جذوعه فحم مُوقَد، وثمره نار مستعرة تنزل على قلب طيب فتحرقه، وكلما احترق عاد ليعود إليها، فما مسني الخوف، قمت هَلِعًا أتخبط في أشياء الغرفة، ضوؤها الخفيف جدًّا يُكسب الأشياء مهابة وقدرة على التخويف، وكلما لمستُ شيئًا لأستند إليه فزَّعني وقذفني لشيء آخر، فما ملكتُ من الغرفة غير نافذة، هأنذا أطل منها عليك، وتراني من خلالها.

أشكو إليك همّي وهواني، فهل لكَ أن تهبني ما عجزتُ عنه، وحرموني منه؟

وأسمع على الباب طرقًا خفيفًا، وأراه ينفتح وتدخل أمل، خطواتها الواهنة واثقة في تقدمها وهي تخطر في قميصها الشفيف الذي يكشف، رغم نقص الضوء، عن حُمرة بشرتها الصافية، وذراعين فيهما من القوة والحنو ما يُصَفّي قلب العاشق للطواعية والسكون، صدرها ممتلئ بلحم وثير أسفل نهدين يبصان رغم أنف القميص، ومفرقهما نهر غائر، عميق، شعرها الطويل المسدل خلف ظهرها حين طوَّحته طوَّحني في فراغ الغرفة، وأذهب الكوابيس لتجرَّ شياطينها وشجرها ونارها الموقدة، وتستكين في ركن قصيٍّ.

في لحظة كهذه يستطيع جسد المرأة أن يكون وجودًا موازيًا، إن لم يكن حياة بأكملها، استوتْ على حافة السرير، وكنت لم أزل عند النافذة، لم تقل هيت لك فحالها ينطقها بلسان فصيح، أغلقتُ النافذة فتوارى من خلفها القمر، فما كان بيني وبينها غير ضوء الغرفة الخافت وبضع خطوات قليلة، خطوتها وجثوت عند قدميها، رفعتهما قليلًا عن الأرض وفرشت كفيّ من تحتهما، ملأتهما باللحم وحركتهما فيهما، فسرتْ نعومتهما في جسدي خدرًا لذيذًا، بينما سرت خشونة كفيّ في جسدها رعشة جعلته أكثر ارتخاء في جلوسه، سحبة أصابعي في انزلاقها لأعلي، من الساقين إلى الفخذين، وئيدة وناعمة ولها خدر لذيذ ينشع في أعمق أعماق

الـروح الظمأى، أدخلـتُ أصابعي تحت قميصهـا، وما كان طويلًا، أغرسـها في لحم السـاقين، فتشـب اللـذة عنيفة وكلمـا رفعتُ كفيّ ازداد جسدها قُربًا من الاستواء على السرير.

ها هي ممددة عليه.

بيني وبينها اتكاءة جسدي عليها.

لا ريح يزعجنا هبوبها.

ولا تراب يقطع ما بيننا من لذة التحقق.

ليـس سـوى وقـع عجـلات حديديـة علـى الأرض، هنـاك فـي الخارج، أحاول أن أتناسـاه لكنه يزداد اقترابًا من الباب حتى يفتحه، فيطل علينا الرجل القعيد بعينين منكسرتين، لكن نظرتهما المنكسرة رصاصة خارقة تشق في قلبي، وتُسيل وقت انطلاقها دمعتان كبيرتان وقاسيتان رغم ضعفهما، حتى أني لن أنساهما ما حييت.

***

لو أننا مخلوقات فضائية؟!

هـل كنا سـنحتاج للجـوء إلى النهـر والجبـل والبحـر والزروع والشـمس والقمـر، والطريـق بـكل تفصيلاتهـا، والأشـباح التـي تسـكن ظلام الغابة؟ هل كانت أسطورة سـيزيف ستعنينا في شيء؟ هـل كنا سـنظل على ذات كراهيتنـا لهتلر وأبي جهـل ويهوذا وكهنة المعبـد ومثلث برمـودا الذي يأبى أن يعطينا تفسـيرًا واحـدًا لقدرته

علـى إخفائنا بغير دليـل؟ وهل كان قيس وليلـى وروميو وجولييت سـيغادرون قلوبنا دون أن نُسقط عليهم دمعة واحدة من نفس مكان مغادرتهم، وبحُرقة شـديدة؟ أم أن فضائيتنا عندئذ سـيكون لها شأن آخر؟!

مـا أعرفـه الآن يقينًـا أن الأرض لم تزل وبإصـرار عجيب، تتجه نحو ظلمة دامسة، تسيطر على كل شيء، والسماء من فوقي سوداء، مختبئة نجومها، وما كان القمر المنبثق بدارة كاملة على سطح وجهها يضيء غير نفسه، وحده الذي يعرف حقيقته وحقيقة الآخرين، وحده بذلك الوجه الذي يملأه مبتسمًا، ولا أعرف لماذا؟!

يبـدو أننا صنعنا ثـورة، لكننا رفضنا وبشـكل قاطـع أن نتغير من بعدهـا، يبدو أننـا الآن أحوج ما نكون إلى فهم كامل وعميق لوجهنا ووجهتنـا، لكياننـا ومكانتنـا، وأيضًـا لنقائصنـا وعيوبنـا العميقـة، بـلا حـرج أو هروب، على الأقـل يجب أن نمتلك قـدرًا من التقدير لوجودنـا على قيـد الحياة، قـدرا يعطينـا القدرة على التماسـك به، ومحاولة خلق فائدة ولو بسيطة منه، من أجل أن نوفر لأنفسنا الدفء والتفاهـم والقبـول والحب والتسـامح، من أجل أن نشـعر بوجودنا إلى جوار بعضنا بعضًا، وأن نبتسم لوجوهنا إذا التقت مثلما يداعب العشاق وجوه بعضهم.

إن العالـم الآن مظلـم، لكـن ثمة صوتًـا يدوي في الفضـاء بنداء غائر، لكنه موجود بكل تأكيد، حتى ولو لم يسمعه أحد غيري.

فهل لي أن أصالح نفسي؟

حُفنة رقيقة ووئيدة من الضوء تسقط من وجه القمر، تلامس وجهي فتضيئه، تدغدغ بدني فتولد انتعاشة خفيفة، لكنها ما تلبث أن تدخلني كطوفان نوح، رغم البرودة التي تنتاب الأشياء في ليل الصحراء، إلا أنني أحسها دافئة، دفؤها في خديّ وجبيني وروحي، أملس على وجهي بكفيّ وأمسح على قلبي، أعاود النظر إلى القمر فأباغت، وكأنني أرى وجهي فيه، أو في زمن كان يخصني صغيرًا، حين كنت أنا وسعاد في ليالٍ كثيرة قضيناها فوق سطح بيتنا، ننظره في سمائه فنراه ينظرنا ويبتسم، ننظر لبعضنا ونفرح أن واحدًا من الناس لا يراه غيرنا، وحين نعاود النظر إليه نباغت ويملأنا الخوف.

- أنا أرى وجهي يا سعاد!

وتقول سعاد

- وأنا أرى وجهي يا محمد!

كنا نخاف أن يسحرنا القمر فيأخذنا إليه في السماء، فننزل مهرولين كلٌ إلى صحن بيته، ونقسم ألا نعود ثانية، ثم نلتقي فوق نفس السطح في الليلة التالية، ضاحكين في لسان واحد.

- سحرنا القمر فعدنا إليه.

هل أنا حزين؟!

قد أكون حزينًا لفقدي لسعاد، فقد أحببتها حقًا، وها أنتِ يا سعاد حاضرة حضورًا يُشعل الحزن داخلي، أراكِ ولا أستطيع لمسك، لا أقدر على حضن جسدكِ الجميل وهو ينشع حبًّا في صدري، أو لثم خدك وهو يقطر عسلًا في شفتيّ، عسلًا مصفًّى.

أطيفًا أنتِ، أم أصابني الجنون؟

أظل أسمع طول الوقت صوتك، وقع كلماتك الخافتة في سواد ليل «المَعَنَّى» يهتف:

- يا محمد، يا محمد.

ما بال اسمي أصبح جميلًا، يركض في الفضاء بحرية مطلقة، أعلى بيتي وبيتك، فوق أسطح المنازل الطينية، في الشوارع فوق أعمدة الكهرباء، وليس لجسدي أن يلحق به، وكلما ازداد صوتك في الفضاء الرحب إيغالًا، ازداد حزني جثومًا واشتعالًا، فأشعر بالأسى وتعاكسني الرمال في البراري.

هل أنا غاضب؟!

قد أكون غاضبًا من ذلك الرجل القعيد، أو ناقمًا عليه، فهل كُتب عليّ وحدي ضياع الأحلام واحدًا بعد واحد.

توقفتُ طويلًا أمام الباب الخارجي، طوفان نوح داخلي يُشعرني بسعادة وتسامح، أفكر في لحظة رؤيتي لهذه السيدة، لهذا الأمل الذي ما زالت عيناه معلقتين على قدميَّ وهي تقف على عتبة بيتها،

كيفيـة معرفتـي بها، تطـور العلاقـة وانتهاؤها بهذه الصـورة، لكنني عندما أتأمل الظلام من حولي، أعرف أن الليل لم ينجلِ بعد.

لذا سـأظل أذكـر دائمًا هـذه الليلة، فرغـم ما حدث إلا أن شـيئًا جديـدًا، وجميـلًا، بـدأ ينمو داخلي، حقًا لا أسـتطيع الآن تفسـيره، لكنني أشعر به وأحسه في قوة .

سـأظل أذكـر دائمًـا تلـك السـيدة أمـل، لـم يـزل طعم شـفتيها على شـفتيّ فـوق رءوس الموتى عذبًا، شـبقًا، يهزنـي قويًّا، يتأجج ويضطـرب داخلي، يدفعنـي لانفعالات شـديدة ومتناقضـة، فَرِحَة وحزينة، مسـتقرة وقلقة، لكنها متجهة بإصرار صوب الأمام، وكلما حاولتُ الإمساك بناصيتها انسلتْ كسراب بعيد.

وسأظل أذكر أيضًا ذلك الرجل القعيد، جلبابه الأبيض، الضيق، انبعـاث صوته خافتًا كأنما يحرس أطلالًا غائرة، وينسـى أنه سـاهم بيديه في هدمها بنظراته الحادة، المترقبة، والمتشككة في كل جديد قادم.

ما أشبهه بوالد سعاد!

كلاهما قعيد، متشكك، يحبس نفسه في عالم خفت ضياؤه حتى بـدا مظلمًـا، ولا يـدرك حجم الضوء الـذي يملأ الكـون من حوله، لا يـدرك أننـا مجـرد صـور، وأن وجودنـا الصـوري هـذا إنمـا هو لأداء مهمة محددة، ولعب دور مُسـبق ربما لا يعنينا في شـيء على الإطـلاق، لكنه مهم جدًّا للأيادي التـي تعبث بنا من وراء الحُجُب،

بينما تكمن حقيقتنا هناك في مكان ما، صحيح أنه غائر لكنه موجود بـكل تأكيـد، أؤمن الآن أن صفاتنا السـامية هـي ما تُقربنـا منه، فيما يزيحنا الكُره بعيدًا جدًّا.

الآن أحمل شـنطتي الخضراء، متوسطة الحجم، وهي تكبر بين يديّ، في وجه سـؤال يتعملق بغير جواب، هل سأقدر على شيء؟!
نصف الليل رحل، فهل لم يبق لديّ سـوى المكوث في وحدتي في انتظار ممدوح الذي لن يبرح مكانه بداخلي أبدًا.

وأنا أمشـي في ظلمة الليل ببطء شديد، بقدمين متهالكتين تنأيان بعيدًا وتختفيان، لم أقوَ إلا على رفع بصري للسـماء حيث كان طائر يرف بجناحيـن هادئين، لكنهما واثقان، صـوب القمر، وكان القمر وجهًا منيرًا يسـطع في قلب سـماء سـوداء، يرنو إليّ ببسـمة واسعة، فأبدأ في المسير.

سيرة ذاتية



محمد محمود صالح عطا البحر

تاريخ الميلاد/ 6/ 7/ 1968م

المؤهـل/ بكالوريـوس إعلام. كليـة الإعلام. جامعة القاهرة

البريد الإلكتروني/ ms.elbahr@gmail.com

العمل/ إخصائي إعلام وعلاقات عامة بهيئة قصور الثقافة ـ مصر.

- روائي وقاص وكاتب سيناريو.
- الأمين العام للأمانة العامة لمؤتمر أدباء مصر.
- عضو الأمانة العامة لمؤتمر أدباء مصر لأكثر من دورة.
- نشـرت أعمالـه فـي العديـد مـن الصحـف والمجـلات الأدبيـة المتخصصة المصرية والعربية.

الجوائز

- جائزة الشارقة للإبداع العربي في الرواية 2004 م.

- جائزة غسان كنفاني للسرد القصصي في الرواية 2012م.

- جائـزة المسـابقة المركزيـة لهيئـة قصـور الثقافة في القصـة أعوام 1990م، 2001م.
- جائزة المسابقة الثقافية لمؤسسة اقرأ في القصة أعوام 2001، 2002، 2003 م.
- جائزة المسابقة الثقافية لاتحاد شباب العمال 1994م.
- جائزة المسـابقة الثقافية لاتحاد الشـباب التقدمـي. حزب التجمع 1994م.
- جائـزة المسـابقة الثقافيـة لإقليم وسـط وجنـوب الصعيـد الثقافي 1998م.

كتب صادرة

- «أزمنة الآخرين» قصص قصيرة. سلسلة إبداعات 1999 م.
- «ثـلاث خطوات باتجاه السـماء» قصص قصيرة. سلسـلة أصوات أدبية 2008 م.
- «حقيبة الرسول» رواية. 2010 م.
- «موت وردة» رواية. 2013م.

أفلام

- «كريسـتال» فيلم تسـجيلي عن تدهور صناعة الفخـار في مدينة قنا 2010 م.

***

"لقد فكرت فيها كثيرًا منذ بداية الرحلة وما زلت، منذ سماحها لي بالركوب إلى جوارها ولم يكن عليها فعل ذلك، وفي خلال كل ما مر من سفر وعنت وطعام وحديث، فلماذا كان اختيارها لي وحدي دون غيري من الناس الكثيرين الذين كانوا يملأون ساحة الموقف؟

أمل، أهو اسمها الحقيقي أم ماذا؟".



بين حرص الجندي «محمد» على اللحاق بموعد عودته إلى الجيش، وبين ما يجري بعيدًا في القاهرة، تدور أحداث هذه الرواية، التي تستدعي الماضي القريب، إلى الحاضر المعاش، بلغةٍ راقيةٍ، وتكثيفٍ مميزٍ؛ ليخرج القارئ في النهاية مستمتعًا بهذه الحالة الإنسانية التي تتقلَّب بين الحب المستحيل، والنزوة العابرة.. في تلك المسافة الغائمة بين الموت المحتمل، والحياة المتربصة!